جودت سـعيد

لا إكراه في الدين

دراسات وأبحاث في الفكر الإسلامي



العلم والسلام للدراسات والنشر

دمشق ـ سورية

لا إكراه في الدين

بسم اللّه الرحمن الرحيم

جودت سـعيد

لا إكراه في الدين

دراسات وأبحاث في الفكر الإسلامي

إعداد: محمد نفيسة

العلم والسلام للدراسات والنشر
دمشق ـ سورية

رقم الكتاب : /١/.

العنوان : لا إكراه في الدين.

المؤلف : جودت سعيد.

إعداد : محمد نفيسة.

الطبعة الأولى : ١٤١٨ هـ و ١٩٩٧م.

عدد النسخ : /١٠٠٠/ نسخة.

موافقة الإعلام : /٣٩٤٥٥/ تاريخ: ٢٧/٥/١٩٩٧م.

الناشر : مركز العلم والسلام للدراسات والنشر.

يوزع بالتعاون مع

دمشق - دار الآفاق والأنفس - شارع مسلم البارودي - ص.ب: ٤٧٢٧

هاتف ٢٢١٥١٢٣ فاكس: ٥١١٧٦٠٦

العلم والسلام للدراسات والنشر

دمشق - سورية - ص.ب: ٣١,١١١

المحتوى



كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر مركز العلم والسلام للدراسات والنشر، أن يفتتح أعماله بنشر كتاب (لا إكراه في الدين) للمفكر الإسلامي جودت سعيد، الذي عُرف بدعوته إلى اللاعنف، واللاسرّية، وتغيير ما بالأنفس بالعلم، والانفتاح على المختلف، وقبول الرأي الآخر.

وإن المتتبع لعناوين فصول هذا الكتاب سوف يجد فيه بحوثاً واقعية وسعياً حثيثاً للوصول إلى العواقب النافعة لأوسع فئات الإنسانية، وللتخلص من أمراض الفكر وعوائق التقدم التي تعاني منها مجتمعاتنا العربية والإسلامية، بسبب مفاهيمها المغلوطة عن الله والكون والإنسان.

ونحن في مركز العلم والسلام، انطلقنا في تسميتنا لمركزنا بهذا الاسم من فهم قرآني لمفردتي العلم والسلام، وللعلاقة الصميمية التي تربط بينهما، فالقرآن يقول: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم﴾ [الإسراء ١٧/٣٦]، والعلم بالمفهوم القرآني ـ كما ورد في الصفحة ٧٢ من هذا الكتاب ((هو الذي يكشف الحق، والعلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح اللازم عليه)).

والسلام هو اسم من أسماء الله تعالى، ومن السلام جاء الإسلام، ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ [يونس ١٠/٢٥] و﴿أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة﴾ [البقرة ٢/٢٠٨]، ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ [النساء ٤/٩٤].

أما العلاقة الصميمية بين العلم والسلام فهي التي يرسمها جودت سعيد في مقدمة كتابه (اقرأ وربك الأكرم) في الصفحة /٩/ حين يضع لكتابه هدفين بعدهما من أهم الأمور وأنبلها: الأول: وضع الإنسان على طريق العلم، والثاني: السلام. ويقول عن العلاقة بينهما: ((والسلام وليد العلم، فعن طريق العلم يدرك الإنسان إمكانية إصلاح الإنسان دون إعطابه وتدميره، لأن قليل العلم الذي أعيته الحيل هو الذي يلجأ إلى الهدم والتدمير، وأحياناً إلى فكرة (عَلَيّ وعلى أعدائي) بدل أن يتجه إلى العلم الذي سيحول العدو إلى وليّ حميم)).

إننا لا نقصد بالعلم ألقاباً وشهادات وأسماء، بل نقصد العلم القرآني الذي يكشف الحق بالعواقب الأنفع: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون﴾ [الشعراء ٢٦/٧٢-٧٣]، ولا نقصد بالسلام مفهوماً زمنياً أفرزته أحداث حقبة زمنية قصيرة؛ بل نقصد السلام الذي تسير إليه الإنسانية عبر مسيرة كدحها الطويل، والذي أساسه العلم.

وقد عملنا في مركز العلم والسلام على إعداد هذا الكتاب من أبحاثٍ كتبها الأستاذ جودت سعيد في مناسبات مختلفة، وعرضنا عليه فكرة إخراجها في كتاب يحمل عنوان: (لا إكراه في الدين)، فوافق ووضع له مقدمة تتحدث في فكرة: (لا إكراه في الدين)، وموقعها في القرآن والحياة.

ونحن اليوم إذ ننشر هذا الكتاب نسأل الله تعالى أن يجعله فاتحة خير لأعمالنا المقبلة، والله ولي التوفيق.

الناشر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى والآمرين بالقسط من الناس..

﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَن يَكْفُرْ بالطّاغوتِ وَيُؤْمِنْ باللّه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوثْقى لا انْفِصامَ لَها واللّه سَميعٌ عَليمٌ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦].

الأفكار، إنتاج الأفكار، إنتاج المعنى بحيث يصير للوجود معنى، كل هذه قضايا كبرى، ولكنها غير متيسرة لنا في الظروف التي نعيشها في مجتمعاتنا التي تربت على قمع الأفكار الجديدة.

يذكر توينبي مثلاً من عالم الحيوان يقرب لنا موضوع القمع الذي يمارس على الفكر المخالف فيقول: إذا جرحت دجاجة وسال منها الدم الأحمر في قطيع الدجاج، فإن باقي الدجاجات ينقرنها في موضع الجرح حتى تموت، ثم يقول: والبشر كذلك، فهم ينقرون الشخص الذي لا يفكر مثل تفكيرهم. فالشخص الذي يفكر تفكيراً مخالفاً لتفكيرهم لم يكن يستطيع أن يعيش معهم، لأنهم كانوا يصدرون عليه حكم الإعدام، ولا زال هذا موجوداً إلى يومنا هذا، وفكرة قتل المرتد مرتبطة بهذه الأفكار القديمة التي عاشها الناس، وحتى حين جاء الإسلام فإن الناس لم يكونوا يعرفون أن البشر متساوون، وأن الملك ليس وراثة.

هذه المفاهيم الثورية الكبيرة جاءت كي نعلمها للناس في المستويات الشعبية،

لا أن تبقى في أذهـان بعـض الفلاسـفة فقـط، ولكـن حتـى الفلاسـفة لم يكونـوا يتصورون تحرير الأرقاء في تلك الأيام.

أخـيراً، وبعـد معانـاة طويلـة، بعـد أكـثر مـن خمسـين سـنة مـن الخـوض في مشـكلات التديـن والحداثـة، وإعـادة النظـر في كـل الأمـور، بـدأت ألمـح معـان جديدة، بدأت أشعر أن ما جاء به الأنبياء لم يأت في حياة البشر بعد، و لم يستعد البشر لفهمه، كما أنهم لم يفهموه حين نزل عليهم، فقد فهموه على أنه إعجاز، و لم يفهموه على أساس السننية.

بدأ هذا الأمـر ينكشـف لي، وصـرت أبشـر بعهـد الأنبيـاء، ومـا دعـوا إليـه، وأعتقد أن ظهـوره القـادم سـيكون دليـلاً إعجازيـاً، لكنـه ليـس خارقـاً، فدليلـه سيكون من عالم الشهادة.

لقد جاء الأنبياء جميعـاً بـالتوحيد، جـاؤوا بــ (لا إلـه إلا اللـّه)، ففـي سـورة الأعراف يتحدث الأنبياء جميعاً عن التوحيد، ويقولون لأقوامهم: ﴿اعْبُـدوا اللـّه مالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف ٧/٥٩]، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ اعْبُدوا اللـّه واجْتَنِبوا الطّاغوتَ﴾ [النحل ١٦/٣٦]، و(لا إله إلا اللـّه) تعني عبادة اللـّه واجتناب الطاغوت.

هذا المعنى، معنى التوحيد، الذي يكثر القـرآن مـن ذكـره، يختزل في عبـارة: ﴿تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ﴾ [آل عمران ٣/٦٤]، تعالوا إلى المساواة، تعال فإن لك من الحق مثل ما لي، وحين كتب الرسول ﷺ إلى ملوك العالم وزعمائه قال لهـم: ﴿تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ﴾.

إنها آية قرآنية واضحة جداً، ومفصلة في ثلاث جمل: ﴿قُلْ يا أَهْـلَ الْكِتـابِ: تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ، أَلاّ نَعْبُـدَ إِلاّ اللـّه، وَلا نُشْـرِكَ بِـهِ شَـيْئاً، وَلا

يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دونِ اللَّه﴾ [آل عمران ٣/٦٤]، أي ألا يكون هناك أصحاب امتيازات، أصحاب قوة يفرضون آراءهم على الناس، كلمة السواء هي المساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم وأديانهم، كلمة السواء هي العدل أيضاً: ﴿ألاّ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً﴾، وهذا معناه ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾، والإكراه هو أن أفرض رأيي عليك بالقوة، وهذا معناه أن حرية الرأي والاعتقاد والفكر مصانة.

لقد فك الأنبياء جميعاً العلاقة بين الفكر والعنف، فحرروا معركة الأفكار من معركة الأجساد، واللَّه تعالى حمى الأجساد من أن يعتدى عليها من أجل الأفكار، فلم يعط لأحد الحق على جسد الآخر مهما كانت فكرته.

﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ آية كبيرة جداً، لا يحق لك أن تجبره على رأيك ودينك، وحين تصنع مجتمع اللاإكراه فعليك أن تجاهد الذين يستخدمون القوة ويؤذون الأجساد لأجل الأفكار.

هذا هو معنى الجهاد الذي دعا إليه الإسلام والأنبياء جميعاً، وهذا ما سيتضح للعالم كله في المستقبل.

﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ تعني (لا إله إلا اللَّه)، أي أنها تحرير للناس من استعباد بعضهم لبعض، وحتى الأفكار الصحيحة لا يحق لك أن تفرضها، لأن الفكر الصحيح هو الذي يثبت وحده ولا يحتاج إلى فرض.

والعالم صار الآن مهيأ لقبول مثل هذه الأفكار، صار مهيأً لقبول كلَمة السواء، ولكن ماذا لو رفض الآخر كلمة السواء؟! ماذا لو رفض أن يعزل عالم الأفكار عن عالم الأجساد؟!

علينا في هذه الحالة أن نلتزم بالفصل بين عالم الأجساد وعالم الأفكار ولو من

طرف واحد، نفرض كلمة السواء، ولا نجيز لأنفسنا ما يجيزه الآخر من الخطأ، فبالصواب نستطيع أن نصنع الصواب، وبطريق الرشد لا بغيره نصنع الرشد ونبني المجتمع الراشد.

هذه القضايا بدأت تتبلور لدي بشكل كبير، وصرت أشعر أن المشكلة ليست مشكلة حاكم راشد بل مشكلة صنع الأمة الراشدة، ولهذا كان النموذج الإسلامي نموذجاً مختزلاً مقطراً مصفى، نموذجاً صنع في فترة وجيزة وتحت الضوء وبشكل علني معروف لدى العالم كله من غير أن يخفى منه شيء، وهكذا تميزت الظاهرة الإسلامية بالوضوح الكامل، فقد صنع النبي ﷺ المجتمع المستقل، وكتب الصحيفة أو الدستور الذي ينظم العلاقات في المدينة التي كانت تضم المسلمين وغير المسلمين، وفي صلح الحديبية كتب بنداً يقول: ((ومن أراد أن يدخل في حلف محمد دخل، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل)) وحلف محمد ليس هو الإسلام، بل هو تحالف على السلام، على الدخول إلى السلام، وهذا هو موضوع آية سورة الممتحنة التي تقول: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللـهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ فِي الدّينِ وَلَمْ يُخْرِجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرّوهُمْ وَتُقْسِطوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة ٦٠/٨]، فقد أعطاهم البر والقسط من غير أن ينظر إلى عقائدهم وأديانهم، وبمجرد ألا يقوموا بتهجير الناس وإكراههم من أجل الآراء والأعراق والأفكار. ومثل هذه الآية آية سورة النساء التي تقول: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللـهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبيلاً﴾ [النساء ٤/٩٠]، أما إذا كانوا يهجرون الناس ويقتلونهم لأجل آرائهم ﴿أُولَئِكُمْ، جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبيناً﴾ [النساء ٤/٩١].

إنها أمور واضحة جداً، ولكننا لم نستطع أن نفهمها من خلال ثقافتنا السائدة، ولكن علينا أن نحييها، فالعالم بحاجة ماسة إليها.

اللّه تعالى يقول في القرآن: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ اعْبُدوا اللّه واجْتَنِبوا الطّاغوتَ﴾ [النحل ١٦/٣٦]، وأحياناً كنت أقوم بعملية اختبار فأعرض مثل هذه الجملة على الناس، وأقول لهم: إن ما جاء به الأنبياء واحد: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً﴾، وكل الأمم بعث فيها أنبياء: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّ خَلا فيها نَذيرٌ﴾ [فاطر، ٣٥/٢٤]، وإذا أردنا أن نعرف الأنبياء الذين لم يقصهم اللّه علينا، فإننا نستطيع أن نعرفهم ضمن هذا المفهوم، مفهوم الرسالة الواحدة للأنبياء جميعاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ اعْبُدوا اللّه واجْتَنِبوا الطّاغوتَ﴾، فالذين حملوا هذه الفكرة هم الأنبياء، ونستطيع أن نكشفهم.

وأقوام هؤلاء الأنبياء قسمان: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللّه، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ، فَسيروا في الْأَرْضِ فانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبينَ﴾ [النحل ١٦/٣٦]، انظروا كيف كانت عاقبة المكذبين للأنبياء، المكذبين لرسالتهم التي تقول: ﴿اعْبُدوا اللّه واجْتَنِبوا الطّاغوتَ﴾.

وأتابع الاختبار فأسأل الناس: ما معنى ﴿اعْبُدوا اللّه واجْتَنِبوا الطّاغوتَ﴾؟ فأجدهم لا يعرفون معنى الطاغوت!!..

وإذا أردنا أن نفهم المقصود بمصطلح الطاغوت، فإننا نعود إلى القرآن ونبحث في الآيات التي ورد فيها مصطلح الطاغوت، فنجد أنه تعالى ذكره في آية ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ حين قال: ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغوتِ وَيُؤْمِنْ باللّه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ [البقرة ٢/٢٥٣]، فالجملة الأولى ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ مفسرة في الجملة الثانية ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ لأن الإكراه هو الغي، واللا إكراه هو الرشد، ثم يفسر الموضوع في الجملة الثالثة: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغوتِ وَيُؤْمِنْ باللّه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطّاغوتِ﴾، أي بالإكراه، فالطاغوت هو الذي يُكْرِهُ

الناس، ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّه﴾ الذي يرفض الإكراه ويحمي الناس مؤمنهم وكافرهم إذا قبلوا أن يعيشوا بعدل وسلم بين الناس، و لم يلجؤوا إلى القتل والتهجير من أجل الأديان والآراء، فالطاغوت إذن هو الذي يكره الناس على رأيه ومعتقده، ويقتلهم أو يهجرهم إذا كانوا يخالفونه الدين والرأي والفكر.

والخلفاء الراشدون إنما سُمّوا راشدين، لأنهم لم يأخذوا الحكم بالإكراه، و لم يجعلوه وراثة، والمسلمون احتفظوا بهذا اللقب، و لم يطلقوه على أحد أخذ الحكم بالقوة.

إذن ﴿قَدْ تَبَيَّن الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ومن لم يصدق فلينظر إلى الاتحاد السوفيتي، وإلى التاريخ المعاصر ﴿فَسيروا في الأَرْضِ فانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبينَ﴾ [النحل ٣٦/١٦].

﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ قَدْ تَبَيَّن الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ تبين الطريق الصحيح من الطريق الخاطئ، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغوتِ وَيُؤْمِنْ باللَّه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوثْقى لا انْفِصامَ لَها﴾.

القرآن كله في (لا إله إلا اللَّه)، فهي أفضل كلمة قالها النبيون وجاؤوا بها، والرسول ﷺ قال لعمه: ((يا عم! - يعني أبا طالب - إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها جزية العجم)) قال: كلمة واحدة؟ قال: ((كلمة واحدة)) قال: ما هي؟ قال: ((لا إله إلا اللَّه...)) (١).

(لا إله إلا اللَّه) هي كلمة التقوى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها﴾ [الفتح ٢٦/٤٨]، وهي كلمة السواء.

---

(١) - أخرجه الحاكم (٤٣٢/٢) وصححه ووافقه الذهبي، والترمذي (٣٢٣٢) نحوه وقال: حديث حسن كلاهما عن ابن عباس في كتاب التفسير باب: سورة (ص).

(لا إله إلا اللّه) هي ألا يكون هناك أصحاب امتيازات في الأرض، ومشكلة التوحيد بهذا المعنى ليست مشكلة سماوية إلهية، بل مشكلة أرضية اجتماعية، والتوحيد هو ألا يكون أحد فوق القانون.

هكذا نستطيع أن نفهم مشكلة التوحيد في هذا العصر، ونستطيع أن نفهم كيف أن إنكار التوحيد هو الذنب الذي لا يغتفر، نستطيع أن نفهم خطر الشرك، وكيف أن الإنسان إذا وقع في الشرك حبطت أعماله كلها: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر ٣٩/٦٥].

إنني أشعر تماماً بأن العالم الإسلامي قد حبط عمله وصار من الخاسرين، مع كل الأعمال التي يقوم بها المسلمون، من صلاة وصيام وزكاة وحج، لأن الامتيازات سيطرت عليهم وملكت قلوبهم، فصار القوي فيهم هو الحق، وهذا هو الشرك المحبط للعمل.

حين ذهبت إلى مصر في الأربعينيات، وكان عمري لا يتجاوز الخامسة عشرة، قالوا لنا: نريد أن ندرسكم التوحيد. ففرحت كثيراً، لكنني أصبت بخيبة أمل حين بدؤوا يدرسون التوحيد بالطريقة المعروفة في كتب العقائد، ولم أستطع أن أفهم هذا التوحيد، لكنني الآن أفهم أن مشكلة التوحيد مشكلة اجتماعية وسياسية، وليست مشكلة غيبية عقائدية. إنها مشكلة المساواة بين الناس.

هذه المفاهيم ينبغي أن تبرز في هذا العصر، لأن آيات الآفاق والأنفس صارت تفرضها.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، لماذا يذكر هذه المشكلة؟ لأنها كبيرة للغاية.

إننا لا ندافع عن الإسلام بالمعنى الخاص من حيث الشرائع، لكننا ندافع عن الإسلام الذي جاء به الأنبياء جميعاً، إنه دعوتهم جميعاً، إنه التوحيد، قد يختلفون في الشرائع، وقد يختلفون في العبادات، وقد يختلفون في القضايا التي يعيشونها، وهذا ليس مشكلة، لأن الشريعة قد تختلف خلال المدة القصيرة من حياة النبي الواحد، فتتغير وينسخ بعضها بعضاً، ولكن: ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها﴾ [البقرة ٢/١٠٦]، سواء في آيات الكتاب أم في آيات الآفاق والأنفس، فالأنفع هو الذي يبقى، والذي لا ينفع يذهب جفاءً، والشرائع كلها مبينة على العدل فـ ((حيثما وجد العدل فثم شرع اللّه)).

ولهذا فنحن لا ندعو المسلمين فحسب، بل ندعو كل إنسان لديه منطق، ونقول له: تعال إلى كلمة سواء، وكلمة السواء هي أن تقبل العدل وحل المشكلات بالسلم، وأن ترفض القتل والتهجير لأجل الاختلاف في الآراء والأعراق، ومن قَبِلَ هذا فإن له ما لنا، وعليه ما علينا، بل أحياناً ـ حين يصير لي مجتمع ـ فإنني أستطيع أن أعطيه البر الذي هو أكثر من العدل، وهو المعاملة التي يعامل بها الإنسان والديه.

إنها قضايا كبيرة، وينبغي أن توضح وتتناول من جوانب عدة، وأنا في هذه السطور أضع عناوين فقط، ولعلي أفتح ثقوباً لهذه القضايا والمشكلات الكبيرة.

الأنبياء جميعاً جاؤوا بالتنافس في فعل الخير: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسونَ﴾ [المطففين ٨٣/٢٦] و ﴿لِمِثْلِ هَذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلونَ﴾ [الصافات ٣٧/٦١]، ولكننا حولنا التنافس في فعل الخير إلى تنافس في فعل الشر وكراهية الآخر ومطاردته، وإذا كانت الأجيال القديمة قد كرست التنافس في فعل الشر والخطأ، فينبغي علينا أن نعيد ونكرس التنافس في فعل الخير، وهو أسهل وأقرب إلى النفوس، وآيات الآفاق والأنفس صارت تفرض بذاتها هذا الاتجاه.

ينبغي ألا نبالي، وأن نطرح هذه القضايا، لأن العالم ينتظرها، وينتظر الإسلام، يقول توبيني: ((إذا كان للعالم البشري أن يتحد، فإن الإسلام سيقدم تجربة غنية في كيفية التعايش بين الفرقاء، والتنافس فيما بينهم في فعل الخير))، وأعتقد أن الإسلام بإمكانه أن يعالج العنصريات التي تغلغلت في النفوس، رغم كل اللوثات الجاهلية التي لا تزال لدينا، وهي مثل العنصريات، وقد قال ﷺ: ((أربع من الجاهلية لن يدعها الناس: النياحة والتعاير أو التعاير في الأنساب ومُطِرنا بنوء كذا وكذا والعدوى جَرِب بعير في مئة بعير فمَن أعدى الأول))[1]، وقال في العصبية والافتخار بالأنساب: ((دعوها فإنها منتنة))[2].

إن لدينا منطلقات للدخول إلى كلمة السواء، ونملك دعماً من الأنبياء جميعاً، ونستطيع أن نكشف الكتب السماوية ونصححها على ضوء آيات القرآن وآيات الآفاق والأنفس، ونستطيع أن نكشف حتى الأنبياء الذين لم يعرفهم التاريخ، نستطيع أن نفهم فيما إذا كانوا من الأنبياء أم لا، ونستطيع أن نعرف الآمرين بالقسط من الناس الذين هم ورثة الأنبياء، فكما يُقتل الأنبياء يقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، لأننا نتخذ بعضنا بعضاً أرباباً.

هذا موضوع كبير جداً، ولكن لأن مستوانا الثقافي لا يزال محدوداً فنحن لا قدرة لنا على التعبير عنه بقوة، رغم أن العالم كله بانتظاره، وهو الآن متهيئٌ لقبوله، وكما يقول محمد إقبال:

---

(١) ـ أخرجه الترمذي في الجنائز، باب: ما جاء في كراهية النوح، وقال: "حسن" (١٠٠١)، وابن حبان في صحيحه (٣١٤٢) وأحمد في مسنده (٧٨٩٥) كلهم عن أبي هريرة.

(٢) ـ أخرجه البخاري عن جابر في التفسير، باب: قوله: "سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر اليه لهم..." (٤٦٢٢).

ما ينبغي لنا أن نبالي بكثير من المسلمين الذين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، ويحاولون أن يجعلوا أنفسهم أبناء اللّه وأحباءه، ويقولون: ليس الآخرون على شيء، أو لن يدخل الجنة أحد غيرنا. هذه الأشياء فات أوانها، والقرآن يقول: ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانيِّ أَهْلِ الْكِتابِ، مَنْ يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ بِهِ، وَلا يَجِدْ لَهُ من دونِ اللّه وَلِيّاً وَلا نَصيراً﴾ [النساء ٤/١٢٣].

هذه حقائق كبيرة ومخفية، ولابد من إبرازها، مهما حاول الناس أن يعطوا لأنفسهم امتيازات بدون كفاءة، لأن هذه الامتيازات هي الشرك بعينه، وهي فرض الربوبية على الآخرين، ولذلك أقول: سيذكر التاريخ حَق النقض (الفيتو)، وسيسجله عاراً وعدم رشد عند هؤلاء الذين لا يزالون يحتفظون به من غَير خجل.

كلمة السواء ليس فيها حَق فيتو: ﴿تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ﴾ [آل عمران ٣/٦٤]، ولكن المسلمين لا ينكرون حَق الفيتو، بل يتمنون أن يصير هذا الحق لهم.

إننا لا نستطيع بإمكاناتنا الحالية توضيح هذه الأمور، وحتى فلاسفة الغرب وعلماؤه لا قدرة لهم على أن يفتحوا أفواههم ليقولوا: إن حَق الفيتو خطأ، وينبغي لكي تتحقق المساواة وحقوق الإنسان أن يسجلوا منع حَق الفيتو كأول حَق من حقوق الإنسان.

هذا ما جاء به الأنبياء، لكن أحداً من المثقفين لا يستطيع أن يرفع صوته به أو يدعو إليه، والجميع يتمنون أن يصير لهم حَق الفيتو، وهذا ما يتحدثون به في هذه الأيام من إضافة اليابان وألمانيا وغيرهما إلى قائمة الدول التي لها هذا الحق،وإنني أرى في هذا الحق، حَق الفيتو، الشرك الأكبر الذي يعيق مسيرة البشرية، ونحن

ينبغي أن نتوجه إليه أولاً لإزالته من العالم، فاللّه سبحانه و تعالى لم يقل لموسى: اذهب إلى الفراعنة الصغار أو الطواغيب الصغار، بل قال: اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات ١٧/٧٩]، اذهب إلى الطاغوت الأكبر الذي يقول: ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْري﴾ [القصص ٣٨/٢٨]، ويقول: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْري لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجونينَ﴾ [الشعراء ٢٩/٢٦]، ويقول: ﴿أَنا رَبُّكُمُ الأَعْلى﴾ [النازعات ٢٤/٧٩]،وأنا أقول: صحيح أن في العالم الثالث طغيان وطواغيت صغار، لكن الطاغوت الأكبر هو الأمم المتحدة التي تعرقل مسيرة العالم، وهي أول ما ينبغي أن ينكر، لأن الطواغيت الصغار محميون من قبل الطاغوت الكبير.

أظن أن هذه القضايا قد نضجت وتهيأ الناس لاستماعها، فينبغي أن نقول فيها مهما كانت عباراتنا تشكو القصور والضعف، علينا أن نطرحها بكل الإيمان والقوة، فالتاريخ يشهد لنا، والذي سيحدث في الأرض سيشهد لنا، وآيات الكتاب تشهد لنا، والأنبياء بسيرتهم وتاريخهم وكتبهم يشهدون لنا.

ينبغي أن نعيد إلى التوحيد معناه، فالتوحيد شيء كبير جداً، إنه المساواة بين البشر، إنه العدل بينهم.

وعلى الشباب أن يحملوا هذا الفكر، وأن يعتدّوا به، وأن ينشروه في العالم كله.

وهناك أمر مهم ينبغي أن نتنبه إليه في موضوع الطاغوت فاللّه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ اعْبُدوا اللّه واجْتَنِبوا الطّاغوتَ﴾

[النحل ١٦/٣٦]، لم يقل: اقتلوا الطاغوت، بـل قـال: اجتنبـوا الطـاغوت، لأن الطاغوت لن يكون طاغوتاً إلا بطاعتنا له. هذه الفكرة الكبيرة هي التي جعلتني أنبذ العنف، لأن التخلص من الطغيان لا يكون بقتل الطاغوت، بـل بعدم طاعته في المنكر، في المعصية: ((لا طاعة في معصيـة))[1]، وهـذا أيضـاً هو معنى (لا إله إلا اللّه).

إن العالم كله يربي أبناءه في هذه الأيام على أن يكونوا مثـل البندقيـة أو السيف بيد الطاغوت، لكن الأنبياء جميعاً رفضـوا هـذا، وقـالوا للنـاس: لا، أنتم لستم بنادق، إن لكم رباً، وإذا جاء من يأمركم أو ينهاكم بما يخـالف أمره ونهيه فلا يجوز لكم أن تطيعوه وتنفذوا أمره، كما أنه لا يجوز لكم أن تقتلوه، وإنكم إن لم تنفذوا أوامره فستصنعون المجتمع.

لعل غياب الوعـي في هـذه النقطـة هـو الـذي ضيـع فكـر الأنبيـاء، لأن الطواغيت والذين يدعمونهم نشروا عكس فكرة الأنبيـاء، والذيـن يريـدون التخلص من الطاغوت بالسبب نفسه الـذي سمي مـن أجلـه طاغوتـاً وهـو الإكراه، فإنهم لن يصـيروا غـير الطـاغوت، لأن الرشـد لايـأتي إلا بطريـق راشد، ونحن كم مرّة جربنا إزالة الإكراه بالإكراه؟

إنني في هذه السطور أضع رؤوس أقلام، وأريد للمواضيـع الـتي تطرقـت إليها أن تنتشر في مجتمعنا والعالم، وأنا على يقين من أنها ستترسخ وسـتثبت في المستقبل، وسيدعمها كـل عقـلاء العـالم، وكـل الذيـن يفهمـون تـاريخ

(١) ـ أخرجه البخاري في الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام مـا لم تكـن معصيـة، رقم (٦٧٢٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: وجـوب طاعـة الأمـراء في غـير معصية، رقم (١٨٣٩ و١٨٤٠)، وغيرهما.

الجنس البشري، والتاريخ هو الذي يشهد على صدق الأنبياء، والذي يعرف الماضي جيداً هو الذي يستطيع أن يفهم الحاضر ويتنبأ بالمستقبل.

عليكم أن تتمسكوا برسالات الأنبياء، وإذا كنا نعيش في الغي والإكراه والطاغوت، فلا ينبغي أن يخدعنا هذا، بل ينبغي أن نتعلم من الأنبياء صنع الرشد بالرشد، وعبادة اللّه واجتناب الطاغوت.

والحمد لله رب العالمين

جودت سعيد

بئر عجم – ٢٩ جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ.

و ١٠ تشرين الثاني ١٩٩٦ م.

الفصل الأول

حرية الرأي والعقيدة في الإسلام(*)

تمهيد:

المرجعُ الأول في هذا الموضوع هو قوله تعالى: ﴿لا إِكْراهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغوتِ وَيؤْمِنْ باللّه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَاللّه سَميعٌ عَليمٌ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦].

والمرجع الثاني بعد هذه الآية هو التاريخ، تاريخ المسلمين وتاريخ العالم، لأن التاريخ هو الذي يغربل الحق من الباطل ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّه الْحَقَّ والْباطِلَ فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّه الأَمْثالَ﴾ [الرعد ١٣/٧].

وقد جاءت آية ﴿لا إِكْراهَ في الدِّينِ﴾ بعد آية الكرسي مباشرة، وآية الكرسي قال عنها ابن كثير: ((وقد صح الحديث عن رسول اللّه ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب اللّه))[٢]. وساق الأحاديث التي تدل على ذلك، وعلى أنها الآية المنجية من الشيطان، وأمهاتنا علمننا منذ كنا أطفالاً أن نقرأها قبل النوم، وقلَّ أن تجد بيتاً من البيوت الإسلامية لا تُعلَّق فيه هذه الآية، كما أنك تراها في

(*) - قُدِّمَ هذا البحث للمشاركين في الدورة الثانية للأئمة والخطباء والمدرسين الدينيين من البلدان الناطقة بغير العربية في مجمع أبي النور بدمشق في صباح الخميس ١٩٩٤/٨/١١م.

٢ - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٦١) عن أبي ذر.

وسائل النقل، ويقرؤها المسلمون في أعقاب الصلوات وإذا كانت آية الكرسي في تنزيه اللـّه، فإن آية ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ في تنزيه الإنسان وتكريمه من الاضطهاد والاستعباد والخضوع لغير اللـّه. إنها حماية للإنسان من القهر.

فوائد تستنبط من آية ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾:

آية ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ تحتوي على فوائد عظيمة:

١ ـ إنها في ظاهرها حماية للإنسان الآخر من أن يقع عليه الإكراه من قِبَلِكَ، ولكنها في باطنها حماية لك أيضاً من أن يقع عليك الإكراه، فهي حماية للآخر وحماية للذات من أن يقع على كل منهما الإكراه.

٢ ـ يمكن فهم هذه الآية على أنها إخبار وليس إنشاءً أي يمكن أن تفهم على أنها نفي وليست نهياً، ويكون بذلك معناها إخباراً بأن الدين الذي يُفرض بالإكراه لا يصير ديناً للمكرَه فهو لم يقبله من قلبه، والدين في القلب وليس في اللسان فهي بهذا الشكل إخبار بأن الدين لا يتحقق بالإكراه ومن يُكْرِهُ إنما يقوم بعمل عابث لا أصل له.

هذا معنى الآية حين نفهمها على أنها إخبار وليس إنشاءاً وأمراً، كما يمكن أن نفهم الآية على أساس الإنشاء أي أن تُفهم على أنها نهي عن الإكراه، لأنه لا يليق بالعاقل أن يقوم بعمل عابث، ولأن فرض الإيمان والدين بالإكراه عبث فجدير أن ينهانا اللـّه عنه، فيكون المعنى نهياً عن ممارسة الإكراه للآخر، ونهياً أيضاً لنا عن أن نقبل الإكراه والخضوع له، كي نكون مثل بلال سيد الأحرار الذي رفض الإكراه.

٣ ـ هذه الآية فيها الحكم وفيها التفسير للحكم أي نفي الإكراه في الدين والنهي عنه، وهذا الحكم هو الرشد، هو الأمر الرشيد في تبنّي الإنسان للدين، ومخالفة هذا الحكم هي الغي، لهذا فمن يكفر بالطاغوت الذي هو الإكراه

والقهر والتسلط، ويؤمن باللّه الذي يعطي الحرية ولا يقهر، ويؤمن باللّه الذي يحمي الإنسان من الإكراه، فإنه يكون قد استمسك بالعروة الوثقى، أي اعتصم بالحبل المتين الوثيق الذي لا انفصام له ولا انقطاع.

٤ ـ حين يقول اللّه: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ فإنه يقول هذا عن الدين الذي هو أقدس الأشياء وأعظمها، فمن باب أولى ألا يكون الإكراه في المذاهب الدينية والسياسية والاجتماعية، من هنا يمكن لنا أن نفهم أن حماية الإنسان من الإكراه في الدين حماية له من الإكراه في كل الآراء الصغيرة والكبيرة وهذا موضوع مفيد جداً.

٥ ـ لقد فهم المسلمون من هذا الحكم: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾، فهموا منه حكمَ (لاإكراه في السياسة) ولهذا سمّوا الخلفاء الذين جاؤوا إلى الحكم من دون إكراه وبرضى المسلمين بالراشدين أخذاً بالعبارة التفسيرية الموجودة في هذه الآية ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فقالوا (راشدون) عن الذين وصلوا إلى الحكم من دون إكراه ولم يطلق المسلمون هذه الكلمة (الرشد) على أي حاكم جاء بالإكراه وهذا موضوع مهم للغاية، وهذا حذق من المسلمين أن اختاروا كلمة الرشد الكلمة التفسيرية لـ ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾.

٦ ـ لقد صار هذا الحكم مطلباً عالمياً في هذا العصر أيضاً وجميع دساتير العالم اليوم تضع في بنودها الأساسية الأولى حرية العقيدة، فللناس جميعاً الحق في أن يختاروا الذي يرونه أفضل، ويؤمنون بأنه الأصلح.

٧ ـ هذا الحكم ليس في القرآن والدساتير فقط، بل إن التاريخ أيضاً يبين صدقه وصدق تفسيره، لأن الذين كانوا يمارسون الإكراه في الدين سقطوا أمام العالم، ومثالهم في هذا العصر الاتحاد السوفييتي الذي منع الناس من أن يؤمنوا بالدين الذي يرونه. إن هذا الحدث الكبير في هذا العصر بالذات تأييد لحكم

اللّـه القديم في هذا العصر الحديث، بل وفي المستقبل أيضاً، سيسقط الذين يمارسون الإكراه في الدين ﴿وإنْ عُدْتُمْ عُدْنا﴾ [الإسراء ١٧/٨]، سنة اللّـه في عباده: ﴿سَنُرِيْهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت ٤١/٥٣]. هذه الآية رد على كل الذين يتهمون الإسلام بأنه انتشر بالإكراه، لأن الإسلام لا يزال ينتشر ويتقدم، رغم أن المسلمين ليس لهم سلطان ولا قهر ولا قدرة على الإكراه، إنه ينتشر من دون إكراه، ومع أن المسلمين ضعاف وفقراء فإن الإسلام الذي يقرر ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ ينتشر حتى في البلاد التي تشعر بأنها تسيطر على العالم بالعلم والمال أي بقوة المادة وبقوة الاقتصاد. إن الإسلام يغزوهم غزواً حقيقياً من دون إكراه، ويجتذب أفاضل الناس وأحرارهم، وحسبك بروجيه غارودي مثلاً كبيراً في هذا العصر.

٩ ـ إن من يقبل فكرة ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ يكون واثقاً من أن دينه سينتشر وسيقبله الناس من دون إكراه وهذه الثقة بصحة دينه وسلامته وموافقته لفطرة الناس، هذا الإيمان هو الذي يجعله يرفض الإكراه، لأن الذي لا يثق بدينه وبأفكاره وبأنها صحيحة؛ هو الذي يتمسك بالإكراه في الدين واستعمال القهر، وهذا موضوع مهم جداً جداً، لأنك إذا خسرت ثقتك بأفكارك وأفكار وأحكام دينك فأنت خاسر للقضية قبل أن تبدأ بنشرها بالإكراه.

١٠ ـ من يقبل فكرة لا إكراه في الدين يكون قد وثق بالإنسان وبفطرة الإنسان وبقدرته على الفهم وتمييز الحق من الباطل، والذين لا يثقون بالإنسان وبإمكاناته على التمييزهم الذين يحقرون الناس ويفكرون عنهم ويفرضون آراءهم عليهم.

والإنسان الذي يفقد ثقته بأفكاره ويفقد ثقته بالإنسان يكون قد فقد الرأسمال الأساسي للدعوة، وجدير به أن يكون خاسراً مرتين لا مرة واحدة، لأنه خسر الأفكار وخسر الإنسان ذلك هو الخسران المبين.

١١ - إن من يؤمن بـ ﴿لا إِكْراهَ في الدِّينِ﴾ يدفعه إيمانه بعدم جدوى الإكراه في الدين إلى البحث عن البدائل، والبديل هو السلوك الأرشد والقدوة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن، فإذا كان لا يجوز لك أن تفرض عليه دينك بالقوة والإكراه فليس أمامك إلا أن تدعو إليه بالحب والإحسان فيُقْبِل الآخر عليه، ويتقرب منه، ثم ينغمس فيه، أما الإكراه فإنه يبعده عن الدين الذي يُفرض بالإكراه.

١٢ - يظن بعض الناس أن عهد الأديان قد انقضى، ونحن نقول: بل إن عهد الأديان الحقيقي لم يأت بعد، لأن أهل الأديان إلى هذا العصر لم يتنافسوا في خدمة الناس وإنما كانوا يتنافسون في إيذاء الآخرين، والأديان إنّما جاءت للتنافس في فعل الخيرات واستباق الحسنات وليس السيئات، ولهذا أرى أن المستقبل للأديان لا المتنافسة في الكيد، بل المتنافسة في خدمة الناس والإحسان إليهم، وحينما تتوجه جهودنا إلى ذلك هناك سيبدأ وعد اللّه بالتحقق: ﴿واللّهُ مُتِمُّ نورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرونَ﴾ [الصف ٦١/٨]، وسيتحقق مجيء النصر ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللّه والْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلونَ في دينِ اللّه أَفْواجاً﴾ [النصر ١١٠/١-٢].

١٣ - على المسلمين أن يخرجوا من قلوبهم الكراهية والحقد والعداوة والبغضاء، الناشئة من الإكراه والتسلط والطغيان، وأن يتبينوا الرشد من الغي، وأن يبدؤوا أولاً بإيقاف الكراهية والعداوات فيما بينهم فوراً، فإذا قاموا بهذا وأصلحوا ذات بينهم؛ فإن هذا سيساعدهم على نشر الصلاح والتعاون في

العالم كله، إذ كيف نستطيع أو نتمكن أو كيف يستمع لنا الناس، وكيف يمكن لنا أن ندعوهم إلى الصلاح والتعاون ونحن المسلمين لا نستطيع أن نصلح ذات بيننا ونتعاون فيما بيننا؟!!

لهذا نصيحتي الحارة أن يفهم الشباب هذا الموضوع بجدية وعمق وأن يبدؤوا فوراً في إزالة الكراهية والغل من نفوسهم ﴿ولا تَجْعَلْ في قُلوبنا غلاً لِلَّذينَ آمَنوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحيمٌ﴾ [الحشر ٥٩/١٠]، وأن نبدأ بإصلاح ذات البين أنا وأنت، وأن نبدأ بالتواصل فلا نقطع الصلة، أن نبدأ بالسلام ونلتقي بالقلوب الدافئة المحبة الخالية من الاحتقار ((بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم))[1] أو أن يسخر منه.

١٤ ـ لا إِكْراهَ في الدِّينِ مثل لا إكراه في الحب، الحب لا يأتي عن طريق الإكراه، بل يأتي عن طريق الإحسان، وهذا يوضح لنا أن الإكراه والحب لا يجتمعان، لأنه لا حب في الإكراه ولا إكراه في الحب، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول: لا دين بالإكراه كما لا حب بالإكراه، ولا إكراه في الحب لأن الدين والعبادة مبنيان على الحب والرضا وليس على الكراهية والسخط والنفاق.

ولهذا يخطىء كثيراً الذين يظنون أن بإمكانهم إدخال الناس في الدين بالإرغام والقهر والإكراه.

١٥ ـ ﴿لا إِكْراهَ في الدِّينِ﴾ نفي لجنس الإكراه كله، لأن لا نافية للجنس بكل محتوياته، ولا يستثنى منه شيء، حتى يقطع الإنسان الأمل في هذا الموضوع

---

(١) ـ أخرجه مسلم في البر والصلة، ٩٨ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

كله، وينبذ الإكراه في الدين نبذاً كلياً حتى لا يبقى شيء في نفس المؤمن.

١٦ ـ إن من يؤمن بـ ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ حقيقة وممارسة يكون موضع ثقة ولا يخشى الناسُ منه، لأنه لن يكون مصدر عدوان على أحد من أجل دينه ومعتقده.

١٧ ـ من هذا كله نفهم أن الأراء والاعتقادات الخاطئة لا تُغَّير بالإكراه باليد، بالسلاح، بالقتال، بل بالدعوة، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وبالحوار الذي يلتزم فيه المسلم كلمة التقوى بعد كلمة السواء، لأن السواء هو العدل وكلمة التقوى هي الإحسان.

١٨ ـ كما لا يتحقق الدين بالإكراه، كذلك لا يتحقق الكفر بالإكراه، لهذا فإن المؤمن الذي يُحمل على التلفظ بالكفر بالإكراه لا يصير كافراً، ومن هنا نعلم ارتباط آية ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ بآية: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ﴾ [النحل ١٦/١٠٦].

الأنبياء وحرية الرأي والعقيدة:

كيف تتحقق حرية الرأي؟ إن الأنبياء فقط هم الذين سلكوا الطريق الصحيح إلى حرية الرأي، لأن الأنبياء، وهم قدوة العالم في الإصلاح، حين أرادوا أن يحققوا حرية الرأي، كان عليهم أن ينبذوا الإكراه في الرأي، لأن الحرية لا تتحقق مع الإكراه، ولهذا نبذ الأنبياء الإكراه في الرأي ليحققوا حرية الرأي، ولأجل أن يتركوا الإكراه في الرأي كان عليهم أن يتركوا الأمور التي يحصل بها الإكراه وأهمها العنف، وخاصة العنف الذي يقع باليد، ولهذا قال اللـَّه تعالى لهم: ﴿كُفّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقيموا الصَّلاةَ﴾ [النساء ٤/٧٧]. ولهذا منع الأنبياء استخدام العنف في نشر الأفكار أو في فرض حرية الرأي لأن الذي يحاول أن يفرض الرأي بالقوة يكون قد أنكر حرية الرأي، فكان السلوك والتطبيق الذي

قام به الأنبياء منسجماً مع حرية الرأي.

الأنبياء لم يطالبوا بحرية الرأي بل مارسوا حرية الرأي وحرّموا العنف باليد على أنفسهم وعلى أتباعهم، وقد كان رسول اللّه ﷺ يقول لآل ياسر: ((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))[1]، و لم يقل لعمار خذ بثأر أبيك وأمك، واللّه تعالى يحكي لنا في القرآن على لسان جميع الأنبياء قولهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمونا﴾ [إبراهيم ١٢/١٤]. إن التصميم على الصبر على الأذية هو الذي يجعل لحرية الرأي مصداقية وعمقاً وقوة وأرضية راسخة والتزاماً بها من طرف واحد، فإن رفضها الآخر وبدأ بالأذى فإننا نبقى متمسكين بإعلان الرأي وممارسة حرية الرأي وفريضة البلاغ باللسان بالتي هي أحسن مع كف اليد، وقد أخذ اللّه الميثاق من أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّه ميثاقَ الَّذينَ أُوتوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَ لا تَكْتُمونَهُ، فَنَبَذوهُ وَراءَ ظُهورِهِمْ واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَليلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرونَ﴾ [آل عمران ١٨٧/٣].

والقرآن كان حريصاً جداً على التزام البيان والبلاغ وعدم كتمان الحق مع ترك محاولة الاعتداء، ولهذا يكرر كثيراً موضحاً أن العذاب والأذية التي لحقت بالمؤمنين لم يكن لها سبب ﴿إلاّ أنْ يُؤْمِنوا باللّه الْعَزيزِ الْحَميدِ﴾ [البروج ٨/٨٥]، و لم تكن لشيء آخر من العدوان والأذية ﴿وَمَا نَقَموا مِنْهُمْ إلاّ أنْ يُؤْمِنوا باللّه الْعَزيزِ الْحَميدِ﴾ [البروج ٨/٨٥]، لم يكن هناك أي سبب إلا الإيمان والتبليغ وهذا هو الذي حرص عليه القرآن، وقد حدد الذنب الذي ارتكبه المؤمنون، و لم يكن هذا التحديد نافلة من القول ولا أمراً لا أهمية له، بل إن هذا التحديد والتأكيد على نوع الذنب الذي ارتكبوه، وتوضيحه، وتجليته، أمر مهم جداً، يتوقف على تحديده نجاح الدعوة أو إخفاقها، وإن كان الدعاة في

---

(١) ـ أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٨٣/٣) وأبو نعيم في الحلية (١٤٠/١).

هذا العصر لا يقتصرون على حرية الرأي والإيمان والبلاغ، بل يتجاوزون الإيمان والتبليغ إلى ممارسة العنف والعدوان والاغتيال ثم يرون أن هذا جائز في الدين والإسلام، ولا يفكرون جيداً بقوله تعالى: ﴿وَما نَقَموا مِنْهُمْ إلاّ أنْ يُؤْمِنوا باللـَّه الْعَزيزِ الْحَميدِ﴾ [البروج ٨٥/٨]، ومؤمن آل فرعون حين دافع عن موسى قال لهم: ﴿أَتَقْتُلونَ رَجُلاً أنْ يَقولَ رَبِّيَ اللـَّه﴾ [غافر ٤٠/٢٨]، وكان فرعون حريصاً على إدانة موسى وتجريمه.

ينبغي ألا ننسى أن بلالاً لم يرتكب ذنباً حين كان يعذَّب، وقد كان ذنبه واضحاً وهو قوله: أحد أحد. وإنه لم يحاول اغتيال أحدٍ من قريش.

لقد كان القرشيون الذين يعذِّبون المسلمين يثقون بهم وبأنه لا يأتي منهم عدوان على مال ولا عرض ولا دم، كانوا يثقون بالمسلمين أكثر مما يثقون بأبنائهم وإخوانهم.

والتزم المسلمون وانضبطوا هذا الانضباط الصعب والطويل، فلم يدافع أحد منهم عن نفسه و لم يُقْتَلْ واحدٌ من المشركين على يد المسلمين.

هذا هو الأسلوب الصحيح للوصول إلى حرية الرأي، لأن الذي يؤمن بحرية الرأي ينبغي أن يكفر بالإكراه في الرأي، وينبغي أن يُنكر العنف في فرض الرأي وإلا يكون متناقضاً مع دعوته، ومنكراً لما يدعو إليه، ومن هنا كان قول الأنبياء ﴿ومَا أُريدُ أنْ أُخالِفَكُمْ إلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود ١١/٨٨].

فإذا ارتكب الذي ينهى عنه فإنه يكون قد وقع فيما نهى عنه واللـَّه تعالى يقول: ﴿أَتَأْمُرونَ النّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلونَ الكِتابَ أَفَلا تَعْقِلونَ﴾ [البقرة ٢/٤٤]، كما أنك إذا أبحت لنفسك شيئاً فينبغي أن تبيحه للآخر، وإلا لا يكون عدلاً، والعدل أن يكون ﴿لا إكْراهَ في الدّينِ﴾ من جهتي ومن جهتك، وكذلك قوله تعالى: ﴿تعالَوا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾

[آل عمران ٣/٦٤].

فإنه لا يكون السواء سواء إلا إذا كان عادلاً، فإذا أبحت لنفسك العنف فينبغي أن تبيحه للآخر، وإذا أبحته لنفسك بشرط، فعليك أن تبيحه للآخر بالشرط نفسه وهكذا، هذا هو العدل وهذه هي الكلمة السواء، ولكن الأنبياء لم يتعاملوا بالعدل، بل تعاملوا بالإحسان وهذه هي الطريقة الأكثر نجاحاً، إذا كان العدل ناجحاً فكيف بالإحسان؟! الإحسان ينجح أكثر من العدل، وقد كان من إحسان الأنبياء وأتباعهم أنهم أوجبوا حرية الرأي على أنفسهم وامتنعوا عن المعاملة بالمثل فلم يجيزوا الدفاع عن أنفسهم، وقد قال اللّه لهم ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقيموا الصَّلاةَ﴾ [النساء ٤/٧٧]، وقال لهم: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلّى.... كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ﴾ [العلق ٩٦/٩-١٩]، وبنود صلح الحديبية كانت بنوداً مبنية على الإحسان، وكان هذا الصلح فتحاً لأنه أوقف العنف وترك للناس حرية الاختيار وحرية الرأي وحرية الدعوة، حتى أن الرسول ﷺ أعطى للقرشيين من الحق ما لم يعط للمسلمين، في رد من يلجأ منهم إلى الطرف الآخر، وهذا من ثقة المسلمين بسلامة دينهم وآرائهم ومعاملاتهم وكثيراً ما يتجاهل المسلمون هذه الأمور، والسبب في ذلك، واللّه أعلم، أن ثقة المسلمين بدينهم وآرائهم صارت ضعيفة، فآمنوا بأهمية العنف أكثر من إيمانهم بانتصار الحق حين يتوقف العنف وتترك للناس حرية الرأي والاختيار، وهذا الموضوع ينبغي أن يكثر فيه البحث فكل الذين عندهم علم بالدين والتاريخ سيطمئنون إلى أن الآراء والأديان الصحيحة هي التي ستبقى وأن الآراء والأديان والأفكار الخاطئة هي التي ستذهب جفاء.

ولا بد للدعاة من فهم هذه الأمور بعمق وبعدِ نظر وصبر وأناة وإلا فإنهم سيقعون فيما وقع فيه الذين يعارضون الأنبياء من الإيمان بالإكراه في الدين ومنع

حرية الرأي ومنع حرية العقيدة.

وهنا أعيد مرة أخرى القول إن القرآن وآية ﴿لا إِكْراهَ في الدِّينِ﴾ شاهدان، كما أن التاريخ خلال الأحقاب الطويلة إلى هذا العصر شاهد أيضاً على أن الذين يمنعون حرية الرأي وحرية العقيدة هم الذين أخفقوا في الماضي وسيخفقون في المستقبل، ألم تر كيف فعل ربك بالاتحاد السوفيتي؟ فإنه كان أشد بأساً وقوة ولكن ربك كان بالمرصاد فأسقطهم سقوطاً كبيراً، من دون عدو خارجي، سقوطهم كان ناتجاً عما بأنفسهم ﴿وَما يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلاّ هُوَ﴾ [المدثر ٣١/٧٤]، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرى وَهيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَليمٌ شَديدٌ﴾ [هود ١١/١٠٢]. ﴿فاعْتَبِروا يا أُولي الأَبْصارِ﴾ [الحشر ٥٩/٢].

قتل المرتد وحرية الرأي والعقيدة:

أرى من الواجب على أن أقول رأيي في هذا الموضوع، وبما أن البحث هو عن حرية الرأي والعقيدة فمن حقي أن أمارس هذه الحرية وأقول الذي أراه وأفهمه من دين اللّه وكتابه الكريم، الذين يخالفونني الرأي لهم الحق أيضاً في أن يعرضوا آراءهم في هذا الموضوع، وأنا لا أخاف أن يظهر رأي الذين يخالفونني في هذا الموضوع صواباً، وسواء خفت أم لم أخف فإني مطمئن إلى أن قانون اللّه سيذهب بالزبد جفاءً وسيبقى في الأرض ما ينفع الناس، والحَكَمُ هو التاريخ والمستقبل، ومن أساليب القرآن في التحدي أنه يتحدى المستقبل، ومن ذلك قوله: ﴿اعْملوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنّا عامِلونَ وانْتَظِروا إِنّا مُنْتَظِرونَ﴾ [هود ١١/١٢١-١٢٢].

أي أن المستقبل سيذهب بالزبد جفاء وسيُمكث في الأرض ما ينفع الناس، واللّه غالبٌ على أمره.

من المشكلات الكبيرة في هذا العصر مشكلة قتل المرتد.

وأرى في آية ﴿لا إِكْـراهَ في الدّينِ﴾ نصاً صريحاً واضحاً على تحريم قتل المرتد، وسبب نزول هذه الآية واضح في منع الإكراه في الدين.

لقد صار قتل المرتد مشهوراً وشائعاً بين الناس، ولكن كونه مشهوراً وشائعاً لا يعني أنه صار صحيحاً. كم هي الأحاديث الضعيفة التي يتداولها الناس بكثرة، وتشتهر على كل الألسن ومع هذا كله فهي ضعيفة، وإذا بحثت عن أصلها بطرق البحث العلمية فإنك لا تجد لها أصلاً صحيحاً قوياً؟!

هذه الآية آية ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ محكمة قوية واضحة، وكذلك معاهدة رسول اللّه في صلح الحديبية، فهو لم يطلب من القرشيين أن يردّوا من يلتحق بالمشركين من المسلمين ليقتلهم.

وأنا أعترف بأن الجو الإسلامي مُشبع بفكرة قتل المرتد، ولكنَّ هذا الجو ليس هو مصدر التشريع، وكون حكم قتل المرتد شائعاً بين الناس لا يكفي كي يكون هو الحق الثابت خلال التاريخ.

إن حبنا لقتل المرتدين ليس دليلاً على صدق الحكم وكرهنا لشيء آخر ليس دليلاً على عدم صحته، والرجوع إلى الأدلة وإلى قانون الزبد هو الذي سيكشف الموضوع ويجلي الحكم.

الدليل الكبير الذي يعتمد عليه الجميع هو قول الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه ((من بدل دينه فاقتلوه))[1].

ونحن إذا أخذنا بالرأي الذي يقول إن الحديث لا يَنْسخ القرآن حُلّتِ المشكلة

(١) ـ أخرجه البخاري عن ابن عباس في الجهاد، باب: لا يُعذب بعذاب اللّه (٢٨٥٤).

لأن القرآن ليس فيه قتل من يترك دينه، هذه واحدة، ثم إن هذا الحديث ليس نصاً صريحاً بمعنى أنه يؤخذ منه قتل المرتد من غير تأويل، لأنه لو أخذ من غير تأويل لما جاز لغير المسلم أيضاً أن يغير دينه، إذ ليس المراد ما يدل عليه لفظه وإنما هو شيء آخر حتماً، فهنا تطرق الاحتمال إلى الدليل وهذا يجعل الدليل عن قتل المرتد ضعيفاً وبعيداً، ثم إن راوي الحديث لم يذكر سبب وزمان ومكان ورود الحديث، إذ قد يكون لحالة طارئة معينة، كأن يكون تهديداً لبعض الذين يريدون أن يتلاعبوا مثل الذين ورد خبرهم في القرآن: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنوا بِالَّذي أُنْزِلَ عَلى الَّذينَ آَمَنوا وَجْهَ النَّهارِ واكْفُروا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ﴾ [آل عمران ٣/٧٢]، فيكون حديث الرسول منعا للدخول في الدين لمن لم يؤمن به بل يريد التلاعب، فيكون المراد من الحديث شيئاً مختلفاً تماماً.

ثم كثيراً ما يستشهد بحروب الردة على جواز قتل المرتد، وحروب الردة لم تكن قتلاً للذين ارتدوا، وإنما كانت قتالاً للذين كانوا يريدون القضاء على الإسلام وحاصروا المدينة وهجموا عليها، والقتال غير القتل كما قرره العلماء المدققون.

ثم إن الرق موجود في القرآن في آيات كثيرة ومع ذلك مَنع المسلمون الرق و لم يروا إلغائه إلغاءً للقرآن، بل رأوه تحقيقاً لهدف القرآن، وكذلك قتل المرتد بل إن قتل المرتد لم يَرِدْ في القرآن، والذي ورد في القرآن أن عقوبته إلى اللّٰه في الآخرة و لم يحدد له عقوبة في الدنيا.

ولو أن العالم جميعاً قالوا: سنقتل من يخرج من ديننا فعلينا نحن المسلمين أن نقول: نحن لا نقتله، لأن ديننا بحمد اللّٰه أثبت خلال التاريخ كله أنه الدين الذي ليس له مرتدون وأنه الدين الذي يدخل فيه العلماء العلمانيون، والعلماء من الأديان الأخرى.

ألا ينبغي أن يكون هناك حكمة في مثل هذا التشريع؟ فما الحكمة منه بحسب رأي الذين يقولون به؟!.

ثم إن الذين يقولون بهذا الحكم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير مُتّبعين الشبهات.

إنهم غائبون عن العالم الذي أظهر اللّه فيه أن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض.

إن الناس بدؤوا يدخلون في دين اللّه في هذا الموضوع بالذات، لقد بدؤوا يقبلون شريعة ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ من شرائع الإسلام، فهل نتراجع نحن عن هذا التشريع الذي نفخر به على العالم جميعاً؟! لقد قرر الإسلام حرية الرأي والعقيدة والدين قبل أن يعرف الناس معنى حرية الرأي والدين، ثم إنني أعتبر هذا من علامات تخلف المسلمين، وغيبتهم عن أحوال العالم، وعَيْشهم أفكار القرون الماضية، حيث كان الناس من الذين لا يسمحون للإنسان أن يعيش بينهم إلا إذا كان على دينهم.

ترى كيف ننظر نحن إلى الأديان أو المبادئ التي تقتل من يغيرون رأيهم فيها؟ أليس من الواجب علينا ألا نرتكب الشيء الذي ننكره على الآخرين؟!

إن العالم الإسلامي لا يخسر شيئاً إن لم يقتل من يخرجون عنه، بل سيخسر إذا أعلن للناس أننا سنقتل من يخرج من ديننا، فكأننا نبقي المسلمين مسلمين خوفاً من القتل!!.. هذا شبيهاً بما يقال من أن الإسلام انتشر بالسيف ولا يبقى إلا بالسيف!!

إنني لا أرى أن تمسك المسلمين بهذا من علامات قوتهم، بل إنه من علامات ضعفهم وعدم ثقتهم بأفكارهم وآرائهم، وإن الأجيال القادمة من ذرياتنا

ستضحك منا وستستغرب كم كنا غائبين وعاجزين عن فهم ديننـا ودنيانـا الـتي نعيش فيها.

وأنا بهذا الرأي لست مبتدعاً بل متبعاً للشـخصيات الإسـلامية الـتي لم تـأخذ بقتل المرتد.

إن كثيراً من المسلمين متمسكون بقتل المرتد تمسكاً شـديداً، ليـس هـذا فقـط بل يُقَتّل من لا يقول بقتل المرتد، وهذا دليل على أن أوضاع العالم الإسـلامي في غاية المأساوية، وقد حدث أن قتلوا من قال بعدم قتل المرتد، حدث هذا في أيامنا هذه...

ثم إنني لا أشك في أن المسلم قليل العلم كثير الإيمان هـو الـذي يقـع في هـذه المشاكل.

وإني لأرجو من العلماء الذين يفهمون هذه الأمور ألا يتركوا الساحة لهـؤلاء المتشددين في غير مكان التشدد حتى لا يطول هذا الوضع القـائم، ولا حـرج أن يعرف الناس أن المسلمين ليسوا على إجماع في قتل المرتد.

ثم إنني أرجو أن يفكر المفكرون من المسلمين بأنــه ليـس كثـيراً بـل نـادراً أن يُغَـيِّر المسـلم دينـه إلى ديـن آخـر، وأن قتـل المرتـد يطبـق علـى مـن يجتهـد غـير اجتهادهم فهذا الذي يعتبرونـه مرتـداً. وأرجـو أن يتخصـص متخصـص في هـذا الموضوع ويعرض هذه القضايا بدقة حتـى تتبـين القضايـا السياسـية مـن القضايـا الإيمانية، وإني على يقين من أن مثل هـذه الدراسـات سـتأتي بوضـوح وتفصيـل وعمق، وأن إحياء الإسلام وخدمته يكون من الشباب المؤمنـين المتعمقـين الذيـن يكشفون علـل المسـلمين بالدراسـة والتحليـل والتدبـر لسـنن اللـه في المجتمعـات البشرية وقوانين اللـه في التاريخ، ونحن لا نشك أن وعـد اللـه سـيتحقق بإظهـار هذا الدين، وإظهاره يكون من قبل عباده المؤمنين الربانيين الذين يعلمون الكتاب

ويدرسونه ويرون آيات اللّه في الآفاق والأنفس.

وإني لأرجو من الشباب المتحمسين الذين يخدمون دينهم أن يجمعوا شمل المسلمين وأن يكفوا عن تكفير بعضهم بعضاً وأن يتعاونوا جميعاً مع اختلاف آرائهم ومذاهبهم أن يتعاونوا على البر والتقوى، وأن لا يتعاونوا على الإثم والعدوان، وأن نسعى جميعاً لإصلاح ذات بين المسلمين وجمع كلمتهم وقلوبهم، وأن يتمسكوا بحبل اللّه جميعاً، وألا يرسلوا فتاوى الإعدام بعضهم لبعض، ألا يرسلوا المتفجرات بعضهم لبعض أيضاً.

هذا ما نأمله من طلاب العلم، والعلم هو الذي يجمع القلوب، والرحمة هي التي تؤلف القلوب التي لا يمكن تأليفها بأموال الدنيا، ورسولنا أُرسل رحمةً للعالمين وليس للمسلمين والمؤمنين فقط ربنا لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

الجهاد المشروط(*)

قال يوسف عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، [يوسف ١٢/١٠١]، وأنا أقول: يا رب قد علمتني من تأويل الأحداث في العالم، هكذا يقرأ الإنسان الأحداث في العالم، وهذه هي الحداثة في العصر الحاضر، وهي الحداثة الإسلامية كما أفهمها، فأقول مستعيناً بالله:

الاتجاهات العالمية نحو العنف:

تتقاسم الفكر الإنساني ثلاث نظريات، أو اتجاهات، أو مواقف للتعامل مع الآخرين:

النظرية الأولى: وهي تقول بنبذ العنف مطلقاً في الحياة، ومثالها الأم تريزيا وغاندي.

النظرية الثانية: وهي ترى أن استخدام العنف يجب أن يكون بشكل معين (مشروط)، وبالنسبة للإسلام هناك شرطان للجهاد: شرط في المجاهِد، وشرط في المجاهَد، وهذا ما سيأتي بشكل وافٍ بعد قليل، ولك الخيار بالأخذ بأحدهما.

النظرية الثالثة: وهي أن القوي يفعل ما يشاء بدون شروط: أنا القوي إذن أنا الحق، إنها شريعة الغاب؛ القوي يأكل الضعيف.

(*) ـ كتب هذا البحث في رمضان ١٤١٣ هـ، كانون الثاني ١٩٩٣ م.

إنني أجيز محاربة إسرائيل بشكل يؤذي إسرائيل، ولا يؤذينا أكثر مما يؤذيها، ولكن بما أن الأمم المتحدة هي التي صنعت إسرائيل، فعدونا الحقيقي هو الأمم المتحدة التي صنعتها وتحميها، وهي جهاز أمريكي، وليست (أمماً متحدة) في حقيقتها.

دور الشعوب في مقاومة الاحتلال:

استطاع الشعب اللبناني أن يطرد فرنسا وأمريكا وإسرائيل من لبنان، و لم تستطع (الأمم المتحدة) أن تتدخل و لم يكن لها أي دور.

إذا كان لبنان البلد الصغير الفقير قد استطاع، وبدون أسلحة حديثة ومتطورة، وبدون حكومة، أن يطرد أمريكا وفرنسا وإسرائيل، فهل يمكن لبلد مثل العراق، البلد الضخم الكبير الغني القوي، أن تحتله الأمم المتحدة أو أمريكا؟!

إن أسلوب الحرب الموجود لدينا، والذي نؤمن به هو أن نجهز قوات مسلحة وطائرات، لكنهم يعرفون كيف يقضون على كل تجهيزاتنا هذه خلال ساعتين. إنهم متمكنون من هذا جيداً ينتصرون على الجيش وبعد ذلك تستسلم الحكومة لأنها تعتمد على الجيش، ولكن ينبغي على الشعب أن يتعلم أن عليه ألا يستسلم بمجرد انهزام الجيش وسقوط الحكومة واستسلامها. هنا يبدأ دور الشعب وهذا ما حدث في لبنان، إذ لم يكن هناك جيش ولا حكومة ولا أسلحة حديثة.

نفهم مما سبق أن الذي يستعمرنا هو مفاهيمنا عن الجيش والحكومة والأسلحة الحديثة، لكننا نستيطع بغير هذه الأشياء أن ننتصر على العالم، ولهذا أقول: كان على الشعب العراقي أن يفعل كالشعب الفرنسي الذي تمرد على الحكومة المستسلمة لألمانيا، وقد قاوم الشعب الفرنسي الاحتلال الألماني وحده دون حكومة، وصنع بعد ذلك حكومته.

والشعوب الأوربية تبارك مقاومة النازية والفاشية، وتعتبر أن هذا العمل شرعي، بل ومن أعظم الأمور شرعية، وبالنسبة لنا فإن الأمم المتحدة هي النازية والفاشية الجديدة الحديثة، إذ لو انتصرت ألمانيا على العالم لكانت مثل أمريكا الآن.

شرط الجهاد في الإسلام:

هذا وفق التفكير العالمي، ولكنْ وفق التفكير الإسلامي الذي يريد أن يحقق شرطي الجهاد لا يحتاج الأمر إلى هذا.

إنني أعني بالجهاد استخدام القوة المسلحة، وبيد نظام إسلامي وصل إلى الحكم برضى الناس، حيث إن هذه الوظيفة هي وظيفة الحكومة وليس الأفراد أو الجماعات. ألخص وجهة نظري في شرطي الجهاد بكلمتين، الأولى: شرط في المجاهِد، والثانية: شرط في المجاهَد، أما فيما يتعلق بالمجاهِد فيشترط فيه أن يمثل حكماً شرعياً، من خلال الوصول إلى السلطة بالطريق الشرعي، إذ لابد من إثبات شرعية الحكم، والوصول إلى الحكم يجب أن يتم برضى الناس، فلا اغتصاب للسلطة في الإسلام، كما لا يوجد تغيير للأوضاع والحكم بالقوة، بما فيها الحكم الكافر، أي لا وصول إلى السلطة إلا برضى الناس، كما لا تغيير إلا برضى الناس، أي بإنشاء الأمة الراشدة، وبنائها بالممارسة اليومية، بعد ذلك يأتي الحكم كثمرة طبيعية لهذه العلاقة الزوجية الطبيعية، ولا يكون ثمرة لزواج الاغتصاب الذي يتم عن طريق السيف والبندقية والدبابة.

لا يوجد في الإسلام وصول إلى الحكم بالقوة، لا في البدء، ولا بعد النجاح، لا الآن، ولا في المستقبل، وعلى كل من يريد أن يصل إلى الحكم أن يجتهد في إقناع الناس وإنشاء الأمة الراشدة التي تفرز حكمها طبيعياً.

وأما الشرط الثاني أي شرط المجاهَد: وأعني به شرعية الحرب، فيبينه ما جاء

في سورة الممتحنة: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللَّه عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ في الدّينِ وَلَمْ يُخرِجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرّوهُمْ وَتُقْسِطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّه يُحِبُّ الْمُقْسِطينَ. إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّه عَنِ الَّذينَ قاتَلوكُمْ في الدّينِ وَأَخْرَجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَروا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمونَ﴾ [الممتحنة ٦٠/٨-٩] فيجاهَد كل من يُخرج الناس من عقائدهم وديارهم بالقوة المسلحة، كل من يمارس إخراج الناس أو إدخالهم في عقائد جديدة بدون قناعة، فحالة الإكراه لا يقرها الإسلام، ويهدف إلى منعها من خلال إيجاد تحالف عالمي لإيقاف الظلم في الأرض أينما وقع، وليس هدف الجهاد نشر الإسلام، بل يهدف لمنع الظلم، ولذا فالجهاد هو لحماية المخالف، أي لخلق مناخ الحرية الفكرية بدون إكراه، الجهاد يكون ضد الظالم حتى لو كان مسلماً، وبذا يُشنُّ الجهاد ضد المسلم الظالم حاكماً أو محكوماً بيد نظام شرعي إسلامي، لا بيد جماعات خروج مسلحة على طريقة الخوارج قديماً، لأن الظالم يقوم بممارسة الفتنة، ﴿والْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢/١٩١].

إن الذي لا يقبل فكرة ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ إنسان لا يثق بدينه، ولا يثق بأن دينه سينتصر إذا طبقت فكرة ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾، بل يشعر أن دينه سينهزم، وسيخرج الناس منه إلى أديان أخرى، هذا الخوف هو الذي يمنعه من قبول فكرة ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾. وهذا انهزام داخلي عميق وخطير يجعل الإنسان يرفض الديمقراطية، ويرفض ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾، ويتمسك بالعنف، ويصبح غير قادر على نبذ العنف، لأن وجوده صار مرتبطاً بالعنف وبدونه سيهلك، ولهذا تراه يدافع عن فكرة الإكراه والعنف حتى النهاية، حتى الموت.

هذا الذي لا يجعل في العالم الإسلامي كله بلداً واحداً يقبل الديمقراطية بقناعة، والسبب أنه لم يقتنع و لم يؤمن بأن فكره سينتصر في جو الحرية، وهذا

مرض نفسي يشمل الحضارة الإسلامية كلها، ولابد من إعادة الثقة إلى المسلم بأن فكره أو دينه هو الذي سينجح إذا نبذ العنف، فإذا اطمأن إلى ذلك فسيقبل فكرة ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ وفكرة الديمقراطية وفكرة الحرية.

الأمم المتحدة ونازية هتلر:

كان هتلر يطالب بحقوق الإنسان الألماني المحروم من المستعمرات، والآن الإنسان الأبيض الغربي يطالب ويريد أن يحقق حقوق الإنسان الغربي الأبيض الذي لا يمثل إلا ١١٪ من العالم، أما بقية العالم كله فليسوا من صنف البشر الذين لهم حقوق، لا في ذاتهم ولا أراضيهم ولا ثرواتهم، فحق الإنسان الفلسطيني أن يُهدم بيته ويُطرد منه ويُشرد ليسكن فيه الإنسان الأبيض!!.. هذا هو حكم الأمم المتحدة، كما أن إبادة شعب البوسنة يتم بحكم وقضاء الأمم المتحدة!!.. وتخوُّفُ الأوربيين من أن تقوم دولة إسلامية في وسط أوربا هو الذي يجعلهم يقفون هذا الموقف المخزي والذي سيخجلون منه في المستقبل، وهذا موقف تاريخي سابق فات أوانه وليس موقفاً مستقبلياً من التاريخ.

استخدام الغرب لليهود:

الناس يظنون أن إسرائيل واليهود يُسَيِّرون العالم، ولكن حذق الـ ١١٪ من الغربيين هو الذي جعلهم يستخدمون الإنسان اليهودي، فقد عرفوا نفسية الإنسان الإسرائيلي المتخلف جيداً، فقالوا له: نحن نصنع لك دولة هناك، فَقَبِلَ، وما ذلك إلا ليشغلونا به، لكن بمجرد أن نستيقظ نحن فسوف يتخلون عنه كما تخلى الشيطان عن قريش في معركة بدر ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ واللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ [الأنفال ٨/٤٨]، وستتخلى أمريكا عن إسرائيل حين نستيقظ كما

تخلت هي نفسها عن (فورموزا) بعد أن استمرت في إنكار الصين لمدة خمسة وثلاثين عاماً.

التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية في العالم:

هناك تناقض أساسي عالمي بين المستكبرين والمستضعفين في العالم كله، وهناك تناقضات جزئية بين المستضعفين. ومثال التناقض الأساسي العالمي: التناقض بين مصالح الإنسان الغربي وبين مصالح بقية العالم المستضعف، فـ ١١٪ من العالم يستهلك أكثر من ٨٠٪ من إنتاج العالم، و٨٩٪ من العالم يستهلكون أقل من ٢٠٪ من إنتاج العالم، هذا هو التناقض الأساسي، لكن هناك تناقضات ثانوية بين المستضعفين الذين يمثلون ٨٩٪ من العالم، فمثلاً الأكراد بينهم وبين العراق تناقض، هذا التناقض ثانوي يستغل المستكبر هذا التناقض، فينصر أكراد العراق ويحميهم، في الحين الذي يذبح فيه أكراد تركيا وينفيهم (وبيد أكراد العراق!!)، يستغلهم لمصالحه لتبقى المصالح العليا، وليبقى مسيطراً على المستضعفين.

المستكبر هو الذي ساعد العراق ضد إيران، ونصر العراق على إيران، ثم ساعد الكويت ضد العراق، ونصر الكويت على العراق، وهكذا دواليك، ويمكن أن يفعل هذا في كل مكان، فينصر من يشاء، بما يحقق مصالح الأغنياء ويخرس الفقراء.

إن محاولة قتل رئيس دكتاتوري ومعارضته هي من التناقض الثانوي، ولكن معارضة وقتل الذين يمثلون النازية الجديدة في العالم هي من التناقض الجوهري؛ لأن المفسد الأكبر في العالم هو النازية الحديثة (الأمم المتحدة).

هذا الذي شرحناه هو على الطريقة الغربية والمفهوم الغربي الذي يقول بحق الشعوب في الدفاع عن نفسها وحقها في تقرير المصير، ولكن على الطريقة

الإسلامية المشروحة في الرقم واحد الفقره الثانية يصلح داخلنا ويصلح العالم أيضاً، هذا ما قاله الرسول ﷺ حين قال لقريش: ((كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم (العالم كله)))[1].

أنا ضد العنف، ولكن الذين يقبلون العنف كان عليهم أن يستخدموا العنف، كشعوب، ضد خبراء الأمم المتحدة، كما حدث في لبنان، وبهذا نستطيع تحرير الشعوب من المظالم الداخلية، فصدّام استسلم لهم، ويفتشون بلده بيتاً بيتاً، ونحن ينبغي أن نتمرد على هؤلاء جميعاً.

بناءً على ما سبق من مواقف مشروعة معاصرة (حداثة) كحق الشعوب في تقرير المصير، والدفاع عن حقوقها، ومبادئ الإسلام التي هي أعلى من هذا بكثير، والتي تقول بواجب قول الحق وعدم الدفاع عن النفس حتى موعد صنع الأمة الراشدة لا الخليفة الراشد، يمكن أن أقول: أنا معكم في كل عنف وإيذاء موجع ضد الطاغوت الأكبر في العالم، فهل تكونون أنتم معي، مقابل ذلك، على أن ننكر أن يرفع مسلم على مسلم سيفاً؟؟!.

وأقول منْ مِنَ العرب إذا حدث له ما حدث للكويت، وانتُزِع منه ملكه، وجاءت أمريكا تعيد له ملكه، من منهم يرفض هذا؟!.

إذا طبقت النظرية الثانية (الإسلامية، لا السلام المطلق، ولا شريعة الغاب بل الجهاد المشروط)، يبقى الجهاد مثل وظيفة شرطة النجدة وإطفاء الحرائق، الذين يكونون مستعدين لإنقاذ الناس من عدوان بعضهم على بعض، وإنقاذهم من الحرائق والبراكين والزلازل الاجتماعية.

المشكلة أنه ليس لدى المسلمين التقليديين في العالم كله شروط للجهاد إلا أن

---

(١) ـ أخرجه الترمذي في تفسير سورة ص، رقم (٣٢٨٥).

تكون قوياً وتشعرَ أنك على الحق.

وباختصار أقول: لا يوجد في الإسلام قتل للآخر من أجل الرأي (فكره ـ دينه ـ اعتقاده)، إنه شيء داخل الدماغ، ولذلك لا يقتل الإنسان من أجله إلا إذا خرج من الدماغ وصار في واقع الأرض وقتلَ الناس من أجل آرائهم أو أخرجهم من ديارهم، وبعبارة أخرى أقول: الإخراج من الأفكار والديار، بحسب فهمي أنا، هو مبرر القتال الوحيد والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

السننية واللاسننية

الواقع السيء في العالم الإسلامي:

للبدء في محاولة تغيير الواقع لابد من نقطة أساسية متفق عليها، وإذا أردنا أن نطبق هذا على مشكلة العالم الإسلامي فإننا ننظر: ما هو الجانب المتفق عليه من قبل الفرقاء المعنيين بالمشكلة؟

يمكننا أن نقول: إن الجانب المتفق عليه هو الواقع السيء. وقد أوضح الكتّاب هذا الجانب حتى حظي بالاتفاق. ولعل مقدمة المقال الذي كتبه الراشد المبارك في العدد (٣٣٥) من مجلة العربي أبلغ تعبير عنه، حين قال: ((هذه الحالة من الوضوح والبروز بحيث يكون كل تدليل عليها أو تفصيل لها نوعاً من الجهد الذي يسقط من حسابه الحد الأدنى من المعرفة والإدراك لدى الفرد العادي..)).

وينبغي أن نقول هنا: إن الكراهية التي نبديها لهذا الواقع، إضافة إلى الرغبة الشديدة في التوجه للهدف المبتغى غير كافيين لإحداث التغيير المنشود، ولابد من معرفة طريق الانتقال بالدقة المكافئة للمشكلة المعقدة. ولكن من كثرة ما عرض علينا من طرق مختلفة، أو من كثرة ما أعيدت علينا الوصفات لبعضها، أصبح جذب انتباه القارئ إلى البدائل الأنفع أو الأصوب أمراً صعباً، حتى أن عدداً كبيراً من أصحاب المشكلة، وربما أخلصهم في النوايا صاروا ينظرون إلى المشكلة وكأنها فوق مستوى البشرية، وأنه لابد من تدخل قدرة إلهية أو قوة ما ورائية لحلها، حسب اللغة التي ينطلق منها الباحث.

ولأن المشكلة صارت مزمنة لم يعد يشعر بالخجل من يتقدم بحلول خاطئة،

ولعل وخز الضمير قد خف عند من يدخل إلى الساحة مدجلاً أو متكسباً، فإن العجز عن شفاء المرض الذي ليس له علاج لا يعد عيباً. بل ربما شعر بالخجل أمثلهم طريقة في الدخول إلى هذا السوق الذي لم يعد يميز فيه الغث من السمين من كثرة البضائع المعروضة للغرض ذاته.

ورغم ذلك.. وعلى رأي من قال: ((أعد ذكر من أهوى ولو بملامي))، فإننا نحاول أن نعيد تأمل رُقْية لمرضنا، فنحاول إضاءتها من جديد، وإن لم تكن جديدة في ذاتها.

تغيير الواقع وتغيير ما بالأنفس:

والآن وبعد الإجماع الذي افترضناه على سوء الواقع، أظن أننا قد وضعنا قدمنا على أرض صلبة مجمع عليها، ونريد أن نبحث عن مكان مماثل في الصلابة كي ننقل إليه قدمنا الأخرى. وبما أن هذه النقطة الثانية لم تحظ بالإجماع والوضوح والاطمئنان فإننا نرى أن من المفيد البحث فيها والانتقال بكل المعدات إليها، وحيث إننا لا نجد من نلجأ إليه لاستجداء الدعم لتقرير الموقع الآخر، فإننا نلجأ إلى اللّـه رب العالمين، شأن الذين يلجؤون إليه حين يشعرون بإفلاس وسائلهم في حل المشكلات، نلجأ إلى اللّـه لنستجدي العون والمدد منه في تقرير الخطوة الثانية نحو حل المشكلة.

إن التغيير المنشود والمرغوب فيه، من الواقع السيء إلى الحياة الصحيحة، لا يتم إلا بتغيير ما بالأنفس.

عند هذه النقطة لابد من الإشارة إلى أننا نقع في تناقض لا أدري كيف أصفه.. هل أقول إنه تناقض ساذج طفولي، مثل تناقض الإنسان الذي يريد أن يأكل الكعكة ويبقيها سليمة في آن واحد؟! أو أصفة بأنه خرافة مزمنة؟ المهم أن هذا التناقض يمكن التعبير عنه بقولنا: إننا بقدر ما نريد ونسعى إلى تغيير واقعنا

السيء، الذي نعلم أنه سيء، فإننا نتمسك بنفس الشدة بما في أنفسنا، ولا نعلم، ولا يخطر ببالنا أبداً، أن ما بأنفسنا يتصف بالسوء نفسه وبالفضيحة نفسها التي يتصف بها واقعنا. ولكننا أقمنا المناحات وجمعنا الإحصاءات عن الفضائح الواقعية، وقمنا بالتستر والإهمال والتغطية والإبعاد عن ساحة البحث ما يخص ما بأنفسنا. أظن ـ وبعض الظن إثم ـ أننا إن فتحنا ثقباً على هذا الحاجز لينفذ إليه بعض الضوء، فإننا نكون قد قمنا بعمل باستوري في مستوى آخر.

إن الجراثيم التي تنتج واقعنا في أمان عظيم، ولا يوجد مجهر ولا ضوء ولا سعي باستوري لنقل المشكلة إلى النور وللبحث بما في أنفسنا.

والإهمال والتعتيم والإيحاء بأن ما بالأنفس سليم وغير سيء هو الذي يجعل المشكلة مزمنة، إلى جانب أن ما بالنفس حين يترسخ يصعب التخلص منه، سواء كان ما بالنفس خطأً أو صواباً، فالإنسان يحمي الخطأ كما يحمي الصواب إن لم يدرك آلية التغيير بوعي.

إذن لابد من القيام بعملية تغيير واع لمحتويات هذا المستودع، حتى لا يصاب بتخمة في الأنقاض واختناق بالمتناقضات. هذا المستودع المهمل الذي أغلق بابه، صارت له مسارب وأنفاق، وتحدث فيه تغييرات غير مقصودة وتلقائية، ومن المفيد طرح مشكلة هذا المستودع ومحتوياته، لنتأملها بوعي وهدوء ونضعها تحت الأضواء ونخلصها من الظلام الذي يحيط بها.

والذي يجعل هذا الطرح ضرورياً أن محتويات هذا المستودع هي المسؤولة المباشرة عن هذا الواقع السيء والانحلال العام الذي نعاني منه، وأي محاولة، لعلاج الواقع السيء، لا تأخذ بعين الاعتبار ما بالأنفس محكوم عليها سلفاً بالإخفاق وعدم النجاح، كما هو حاصل الآن.

إن أصحاب المزارع يبذلون كل الجهد في تحديد أماكن الآبار التي يريدون

حفرها لتكون في مظان تواجد الماء، وكذلك تفعل الدول حين تبحث عن البترول.. أليس من الأولى أن يفعل ذلك الذين يبحثون عن المكان الذي يبدأ فيه حل مشكلات العالم الإسلامي؟

والمشكلة كلما تقدمت تعقدت أكثر. هب أننا اتفقنا على تحديد المكان ـ مكان حل المشكلة ـ فمن الذي له الحق في تغيير وتحديد ما يرفع أو يوضع؟ أظن أن كثيراً من المسلمين صار لديهم حس وإدراك يقيني بمكان المشكلة، وتأكدوا من أن أشياء معينة ينبغي رفعها أو وضعها، ولكن من الذي يجرؤ على أن يجعل نفسه كبش الفداء في التحديد والإعلان عن أشياء مثل هذه؟ لعل المشكلة شبيهة بجراحة الأعصاب الدقيقة فأي خطأ يمكن أن يحدث الشلل، غير أن التهيب الزائد يحول دون تقدم العلم والوصول إلى حل المشكلة أيضاً، فالأمر يحتاج إلى الحذق الكامل والمعرفة الدقيقة للمشكلة، والإقدام على حلها.

كم تفيدنا معرفة الشروط والآليات والخبرات والتاريخ، التي أعطت لكل من الطبيب والمريض الجرأة على ممارسة المسؤولية والمغامرة في آن، فيوقع المريض صك قبول إجراء العملية، ويقبل بفتح جسده لإجراء التصحيح الضروري، وليتعافى من آلامه، ويتحمل الطبيب هذه الأمانة وهو يشعر بالمسؤولية الكاملة؟!.

أستطيع أن أقول: إن الذي جعل هذه الممارسات ممكنة هو تقدم علم الطب، ولذلك لابد من أن يتقدم علم تغيير ما بالأنفس، لنمارس ويُمارَسَ علينا مثل هذه التغييرات ونحن على وعي كامل، ودون أن تتحكم فينا الانفعالات الناشئة عن الجهالات، وربما يأخذ على بعضهم التهيب الشديد ولا يراه في مكانه، كما يمكن أن يرى آخرون أني أقحم نفسي في مشكلة هي فوق قدراتنا، ومع ذلك أتقدم مستعيناً باللّه فإن أصبت فبفضله تعالى، وإن لم يحالفني التوفيق فلقصور

تقديراتنا للأمور، راجين أن يوفق اللّـه غيرنـا إلى تفـادي قصورنـا والاهتـداء إلى الصواب والأنفع.

الإسلام والانتقال من اللاسننية إلى السننية:

التغيير الذي أريـد أن أطرحـه يتعلـق بمـا في أنفسـنا مـن مفـاهيم عـن السـننية واللاسننية، لنثبـت وندعـم ونؤكـد السـننية، ونرفـع ونقلـل ونخفـف مـن فعاليـة اللاسننية، إن لم نتمكن من إزالتها تماماً من أنفسنا، واستهدافاً لهذا المطلب يمكـن أن أقول: إن القرآن فتح عهداً جديداً في الحياة البشرية حين جعل آية محمد ﷺ، ودليل نبوته كتاباً يقرؤه الناس على مكث ويرتلونه ترتيلاً. وقد قال ﷺ ((ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمـن عليـه البشـر.. وإنمـا كـان الـذي أوتيتـه وحيـاً أوحاه اللّه إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[1] وقـال محمـد إقبـال في هذا المعنى:

((إن نبي الإسلام يبدو أنه يقوم بين العالم القديـم والعـالم الحديـث، فهـو مـن العالم القديم باعتبار مصدر رسالته، وهو من العالم الحديـث باعتبـار الـروح الـتي انطوت عليها، فللحياة في نظره مصادر أخرى للمعرفـة تلائـم اتجاهـها الجديـد.. ومولد الإسلام هـو مولـد العقـل الاسـتدلالي... والحـق أن القـرآن يعـد الأنفـس والآفاق مصادر للمعرفة...))[2].

فما يسميه إقبال العالم القديم والعالم الحديث ومولد العقل الاستدلالي هو مـا

(١) ـ أخرجه البخـاري: فضـائل القـرآن، بـاب: كيـف نـزول الوحـي وأول مـا نـزل (٤٦٩٦)، ومسلم نحوه: الإيمـان، بـاب: وجـوب الإيمـان برسـالة نبينـا ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٢)، كلاهما عن أبي هريرة.

(٢) ـ تجديد التفكير الديني في الإسلام /١٤٤-١٤٥.

أسميه اللاسننية والسننية، وقد اخترت هذا المصطلح (سُنَّة) لأنها كلمة قرآنية،ومن المفيد جداً أن نعيد إثبات وإحياء المصطلحات القرآنية، وأن نجدد دلالتها. علينا أن نزيل الاختلاط عن هذين الاتجاهين: (السننية واللاسننية) حيث إن تعطيل الجهود ينشأ من التداخل الذي نعيشه في حياتنا بين السننيةواللاسننية، وكلمة (سنة) عريقة في إسلاميتها: ﴿فَهَلْ يَنْظُرونَ إلاّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللَّه تَبْديلاً. وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْويلاً﴾ [فاطر ٣٥/٤٣].

المسلمون بين السننية واللاسننية:

ثبات السنن وصرامتها، لا سيما في قوانين المجتمع، منهج قرآني إسلامي راسخ، ورسول اللَّه ﷺ يستخدم هذا المصطلح حين يقول: ((لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم))[1]. أي أن العالم المادي والاجتماعي خاضعان لقوانين دقيقة وصارمة لا محاباة فيها: ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء ٤/١٢٣]. هذا المفهوم واضح بارز جلي في آيات القرآن، وسنة الرسول ﷺ، وفكر المسلمين أيضاً. ولكن مع وضوح هذا المفهوم فإن المسلمين لا يزالون يؤمنون بفكرة اللاسننية والخوارقية والمحابة والمحسوبية عند اللَّه تعالى، وإلغاء السننية وعدم الالتزام بها أيضاً، إنه اتجاه راسخ في واقع المسلمين عموماً، وقلَّ أن يوجد فينا من عنده حدود دقيقة ومفهوم جلي واضح للفرز بين أعمالنا العائدة إلى السننية وتلك التي تعود إلى اللاسننية، ومن المفيد جداً أن نوجه الانتباه الواعي إلى هذا التداخل والالتباس الذي نحملُه ونعيشه جميعاً، إن مبلغ ما بيننا من فروق إنما هو في القلة والكثرة وليس في التخلص من

(١) ـ من حديث أخرجه البخاري في الاعتصام باب: قول النبي ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم (٦٨٨٨-٦٨٨٩)، ومسلم في العلم، باب: اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

اللاسننية، ولعل إيماننا بأن اللّه قادر على كل شيء، هو الـذي يجعلنـا ننظـر إليـه على أنه يمكن أن يتعامل مع البشر بطريقة لا تخضع للسنن،بهذا فتحنا بـاب التيـه وفقدنا الاتجاه والتمييز. ولكي نتمكن من التمييز بوضوح بين السننية واللاسـننية فإننا ننظر إلى موقـف البشـر مـن الأوبئـة قبـل أن يكتشـفوا الجراثيـم المسـببة لهـا وموقفهم منها بعد أن كشفوا عن مسبِّباتها.

إن اختلاف الموقفـين والسـلوكين يبـين لنـا الاختـلاف بـين الفهـم والسـلوك السنني والفهم والسلوك اللاسنني. إن ما بأنفسنا عن أسباب الأوبئة يختلـف كليـاً عما كان بأنفس السابقين، وهذا التغيير لما بالأنفس أحدث واقعاً يختلف اختلافـاً كبيراً عـن الواقـع السـابق، ومـن المفيـد أن ننتقـل مـن هـذا المثـل إلى الأمـراض الاجتماعية، الأمراض والأخطاء التي بالأنفس، والتي تنتج الواقع الـذي لا يرضـى عنه أحد، فهذا مثل ما بعث اللّه به رسوله من العلم والهدى ومثـل مـن لم يرفـع بذلك رأساً.

القرآن والخوارق:

بقراءة عابرة للإنجيل نستطيع أن نلاحظ أن آية عيسى عليه السلام على نبوته كانت خرق القوانين والسنن: من شفاءٍ للأمراض وإكثار للطعام، في مجتمع تكثر فيه الأمراض وتشح فيه الأغذية، الإنجيل على صغر حجمه ملـيء بهـذه الخـوارق والعجائب، والقرآن نفسه يعترف لعيسى عليه السـلام بأشـياء مـن هـذا القبيـل، بينما لا تجد في القرآن أبداً هذا الأسلوب العجائبي الخـارق للقوانـين فيمـا يتعلـق بمحمد ﷺ، بل نجد القرآن يواجه الموضوع ذاته ويطرحـه عـن قصـد ووضـوح، حينما ينقل عن المعاصرين لنزول القرآن أنهم طالبوا الرسول بأن يـأتيهم بخـوارق السنن بأسلوب لا سنني، ويذكر أن القرآن كان يجيبهم بقولـه: ﴿أَوَ لَـمْ يَكْفِهِـمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت ٢٩/٥١] فهذا الموقف القرآني

الصارم دليل على هجر عصر الخوارق والعجائب واللاسنن. موقف القرآن واضح، إنه يسجل أيضاً مطالبة الناس بهذا الأسلوب وميلهم إليه وافتتانهم به، ونحن لا نزال نَحِنُّ إليه ونمسي ونصبح عليه. ولكنني أستطيع أن أقول: هذا العصر العتيق عصر الخوارق والمدهشات واللاسننية إنما جاء القرآن ليلغيه وينشئ عصراً جديداً من السننية التي تخدم البشر، وإن كان يصعب عليهم التكيف معه في بادئ الأمر.

ومن المفارقات أيضاً التي يؤكدها القرآن في تجاوز عصور الخوارق أنه يذكر كيف أن اللـّه أهلك المعارضين للأنبياء السابقين بآفات سماوية، ثم يعرض الكفاح السنني للرسول ﷺ، الكفاح العلمي الواقعي، والتعامل مع الناس بالأساليب المعروفة، والمعاناة اليومية لتغيير الواقع بالسنن المعروفة للبشر، مع تذكيرهم بأن هذه السنن ستنكشف أكثر في المستقبل، وأن الأسلوب الذي جاء به محمد ﷺ نسخ الأساليب والفهم اللاسنني الخوارقي للعصور الماضية.

صحيح أن القرآن يقص أحوال العصور الماضية وأنهم كانوا يفسرون العالم وأحداثه تفسيراً لا سننياً، ولكنه يعطي تفسيرات جديدة، ويتحاكم إلى تاريخ المجتمعات الماضية، كما أنه يستند إلى معطيات آيات الآفاق والأنفس المقبلة فهذا ما عبر عنه إقبال من أن رسالة محمد ﷺ هي من العالم القديم من حيث مصدر رسالته ومن العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها.

المسلمون والتفسير اللاسنني لحياة الرسول ﷺ:

هذا الاتجاه الذي يحدده إقبال عن رسالة القرآن واضح وجلي، ولكن مراقبة صلة المجتمعات بمثل هذه الاتجاهات تبين لنا الحنين الدائم للعصور الماضية، وكفاحها المرير لإبقاء العصور المنسوخة، والعالم الإسلامي ـ الذي كان المفروض فيه متابعة الاتجاه السنني الذي دأب القرآن على تأكيده ـ تنكب هذا الطريق

ورجع إلى العصور القديمة ونظر إلى حياة الرسول ﷺ نظرة خوارقية وكتب السيرة النبوية ممزوجة بالطريقة القديمة يضاهئ بها الذين من قبله.

إن تأمل هذه النقطة بوعي، وتأمل الأمور الواضحة في القرآن والتزامها، ثم إدراك واقع المسلمين، كل هذا يثبت لنا ضخامة المشكلة وعراقتها، وأنها ليست بنت اليوم والليلة، وأن هذا الرجوع الذي حدث للمسلمين، وهو ما يسمونه "الصحوة الإسلامية"،! لا يزال محملاً بكل عوامل التخلف والأحلام اللاسننية عن الماضي والمستقبل، وحتى الحياة السننية للرسول ﷺ أشربت باللاسننية، فالرسول هو الذي مارس السننية وعانى مشقة التزامها وصعوبة التعامل مع الواقع والتعلم من الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلية، وهو الذي كان يرفض الخوارق حين تعرض عليه، ويتطلع إلى نتائج السعي السنني، فيقول حين عُرض عليه أن يُطْبَقَ عليهم الأخشبان ((بل أرجو أن يُخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده لا يشرك شيئاً به))[1].

السننية واللاسننية اتجاهان كاملان ونظريتان في فهم الحياة تختلفان اختلافاً كلياً فيما يترتب عليهما معرفياً وسلوكياً.

صعوبة التخلص من اللاسننية:

إن السننية نضج ومسؤولية ومعاناة ويقظة دائمة شبيهة بالانتقال من الحالة الرحمية إلى الولادة الجديدة المستقلة عن تبعية الأمومة عضوياً ونفسياً، والانتقال من الأحلام اللاسننية يجعلنا نتخلص من الحنين إلى العصور الخوارقية، وحنيننا إلى

---

(١) ـ أخرجه البخاري: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين... (٣٠٥٩)، ومسلم: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥)، كلاهما عن عائشة رضي اللّه عنها.

عدم النضج يجعلنا نكافح في صف اللاسننية ضد طريق الحياة والنمو، وضد آيات الآفاق والأنفس، ومن ظن أنه يستطيع التخلص من هذه النكسة بسهولة أو أنه يستطيع التكيف من غير معاناة مع الحياة السننية التي لا تنفع فيها الأماني والرغبات فقد دلل على بساطة وسذاجة ما بنفسه عن المشكلة، وكل الذين يتابعون حل مشكلات العالم الإسلامي يصلون إلى السد والسور الذي يحمي الحياة المنسوخة والعصور العتيقة، وإن كنت في شك من هذا فانظر إلى صاحب الظلال كيف يعبر عن هذه المشكلة بأسلوبه الخاص كما عبر عن ذلك محمد إقبال بأسلوبه أيضاً. يقول صاحب الظلال في كتابه (هذا الدين):

((هناك حقيقة أولية بسيطة ولكنها مع بساطتها كثيراً ما تنسى أو لا تدرك ابتداء، فينشأعن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين: حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي، حاضرة ومستقبله كذلك، إن البعض ينتظر من هذا الدين ما دام منزلاً من عند اللّه أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية غامضة خارقة ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ولطاقاتهم الفطرية ولواقعهم المادي في أي مرحلة من مراحل نموّهم وفي أي بيئة من بيئاتهم، وحين يرون أنه يعمل بهذه الطريقة، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة والواقع المادي للحياة الإنسانية يتفاعلان معه، فيتأثران به في فترات تأثراً واضحاً، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه، فتقعد بالناس شهواتهم وأطماعهم وضعفهم ونقصهم، دون تلبية هتاف هذا الدين، أو الاتجاه معه في طريقه.. حين يرون هذا فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها ـ ما دام هذا الدين من عند اللّه ـ أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته، أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً، هذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي هو عدم إدراك هذا الدين وطريقته، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية

البسيطة..))[1].

وهذا ما يلح عليه الدكتور الرميحي في مقالاته (حديث الشهر)، حين يقول متحدثاً عن: ((الأوضاع الشاذة لتدريس العلوم في أنظمتنا التعليمية، وأذكر ـ ولعل غيري يذكر معي ـ كيف كان مدرس الطبيعة في المدرسة الثانوية التي تعلمنا فيها يقدم لنا التجارب العلمية على أنها نوع من السحر أكثر منها قوانين طبيعية))[2].

هذا الموضوع نفسه ـ مهما اختلفت الأساليب التي تعرضه ـ هو محتوى ما جاء في الحديث عن زياد بن لبيد أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: ((وذاك عند ذهاب العلم)) قال: قلنا يا رسول اللّه! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئون أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: ((ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم))[3]. وعند ابن أبي حاتم: ((يوشك أن يرفع العلم))، وهذا مثل قوله ﷺ:((يوشك الأمم أن تَداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها..))[4]. هذا حديث عن الأحوال الاجتماعية الإنسانية وما يطرأ عليها من سيطرة الأوهام. والدراسات الحديثة تبرز باهتمام بالغ أمر الأوهام الاجتماعية في التاريخ التي يعبر عنها القرآن بقوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) ـ هذا الدين /٣ ـ ٤.

(٢) ـ العدد ٣٣٠ من مجلة العربي.

(٣) ـ أخرجه الترمذي في العلم، باب: ما جاء في ذهاب العلم، رقم (٢٦٥٥) ولفظه نحوه.

(٤) ـ أخرجه أبو داود في الملاحم، باب: ي تداعي الأمم على الإسلام، وأبو نُعيم في الحلي (١/١٨٢) وأحمد (٢٢٢٩٦) كلهم عن ثوبان.

الدُّنيا وَهُمْ يَحْسَبونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنونَ صُنْعاً﴾ [الكهف ١٨/١٠٤]. فالرسول ﷺ كان يتحدث عن ذهاب العلم وعدم الأخذ بالسنن والاستفادة منها، والشاهد في الحوار أن رسول اللّه ﷺ لم يقل لزياد بن لبيد حين اعترض على حكم رسول اللّه: أنا رسول اللّه ولا أنطق عن الهوى.. بل ترك الاحتجاج بسلطان النبوة وسلطان اللّه، ولجأ إلى السننية، إلى سنن اللّه في التاريخ والوقائع الاجتماعية المعاشة المعاصرة لهم، والواقعة تحت أسماعهم وأبصارهم. هذا الأسلوب النبوي منبثق من إلحاح القرآن على السير في الأرض والنظر إلى أحداث التاريخ والوقائع الاجتماعية، لأن المتأمل فيها يمكن أن يخرج منها بالحق الذي لا يمكن أن يدفعه أحد. ونحن الآن بحاجة إلى إعادة الحياة إلى مثل هذه البذور، لتبعث الانتعاش فينا، وتفتح أبصارنا على منهج جديد في الحياة.

نماذج من التفكير اللاسنني في واقع حياتنا:

وإذا كنت أيها القارىء الكريم متفائلاً من أحوال العالم الإسلامي الذي نصبح كل يوم على مأساة جديدة من مآسيه، فإني لا أشاركك هذا التفاؤل، لا لأني يائس ولكن لأني لا أرى توجهاً واعياً في العالم الإسلامي، ولأنني أكشف من نفسي، وأنا الذي أتحدث بهذا الحديث، أنني أدخل إلى هذا البحث بقرون استشعار، لا بعيون مفتوحة تبصر الواقع جيداً، وإليك بعض الأمثلة التي نتلمسها بقرون الاستشعار في مجتمعنا الإسلامي من الأحداث التي ذهب عنها ضوء العلم وغشّاها الأسلوب السحري: يأتيني رجل لا يكاد يتخلف عن صلاة الجماعة، ويحدثني بأنه سمع خطيب المسجد في يوم الجمعة يتحدث بأن رائد الفضاء الأمريكي أرمسترونغ سمع الأذان وهو في القمر، ثم يقدم إلي قصاصة قدصور فيها الخبر كما ورد في صحيفة ما مع صورة رائد الفضاء، وأشكره على هذا الاهتمام وأعيد إليه قصاصة الورق، فيقول لي: لتبق عندك، فأنت أقدر مني على

الاستفادة منها، وينطلق.. على أي شيء تدل هذه الأسطورة؟ إنها عند التحليل تعبر عن مأساة العالم الإسلامي وأحلامه، الأسطورة لا تولد في فراغ، بل تولدها الرغبات غير المتحققة، والأحلام الضائعة، والشعور الحاد بالعجز، والفشل والشماتة بالنفس وبالآخرين... ووظيفة الأسطورة دمج هذا كله واختزاله بشكل معبر.. ولو بحثنا عن رواة ومبدعي هذه الأسطورة فإننا لن ننتهي إلا إلى فراغ، ولكن عند التحليل نجد أن الواقع الحي ينطق بمعنى هذه الأسطورة ودلالاتها، فهي تدل بوضوح على الشعور بالنقص والحسد والعجز، أمام الذين وصلوا إلى القمر من الخصوم التقليديين والمنافسين للعالم الإسلامي على مر تاريخه، فهذا الوصول إلى القمر كان تتويجاً لتفوقهم الفاقع، وبلغة الرمز والتعويض تريد الأسطورة أن تقول: صحيح أنكم تفوقتم علينا في هذا، ولكن لا تنسوا أننا لا نزال فوقكم ونحن خير منكم، لأن أذاننا هو الذي يسمع في القمر...

كم يكون مفيداً أن نتمكن من تحليل هذا الواقع بلغة الوعي والوضوح والعلم والسنة، بحيث يكون شفاء لنا، بدل أن نعبر عنه بلغة الأسطورة واللاسننية التي تجلب السخرية لنا من الشامت، والحسرة والأسف من المحب؟! وهكذا بقية الأساطير والأحلام الرمزية التي تتصل بالآليات العميقة في حياة المجتمعات.

يتداول طائفة من خرّيجي الجامعات نشرة تستنبط من القرآن، بواسطة الكمبيوتر، أن الساعة ستقوم بعد ثلاثمئة عام!!. تتحدث صحف عن التيس الحلوب والمعجزات والعجائب التي يعتقدها بعض الناس في حليبه!! تعلن إذاعات ومحطات تلفزيونية عن رؤية هلال شوال ١٤٠٦هـ وذلك قبل أن يحاذي القمر الشمس بما لا يقل عن ٢٤ساعة بالنظر المجرد. كأنه لا يوجد عندنا عيون تبصر السماء، ولا جامعات ولا كليات جغرافيا ولا دكاترة لهم صلة بالموضوع،

وعندهم شعور وحس يدفعهم إلى تصحيح الخطأ والتنبيه إليه. وترسل رسائل إلى تربة الإمام الشافعي لحل أزمة اجتماعية!! وكذلك ترسل رسائل شكوى بكل جدّية، يصوغها علية القوم، إلى مجلس الأمن، وهي لا تقلّ لا سننية عن الرسائل التي ترسل إلى تربة الشافعي في القاهرة!! وهنا يظهر لنا كم هي وثيقة تلك الصلة بين القمة والقاعدة، وكم هي المشكلات موحدة وواحدة على مختلف المستويات، وكم كانت معبرة تلك الإدانة لمؤسسات التعليم والمشرفين عليها، حين تحدث الدكتور الرميحي عن ((تحصيل الطلاب في المستويات التعليمية المختلفة، وها هو الخريج الجامعي الذي ـ في أي تخصص كان ـ يجد صعوبة في الإلمام بالقضايا العامة ويسهل كثيراً إقناعه دون نقاش طويل بأن هذا المنطلق أو ذاك هو الصحيح في الحياة، فيتعصب له دون نقاش، ويتبعه دون تساؤل. ضيّق الأفق في الشؤون العامة يرى الأمور سوداء أو بيضاء قبلياً أو طائفياً أو قطرياً في أحسن الأحوال))[1].

أين موطن الداء؟

أظن أو يُخيل إلي أنه عند هذه النقطة يبدأ تحويل الأضواء والكاميرات من رجال السياسة، في أنهم هم المسؤولون عن تخلف العالم الإسلامي، إلى رجال الفكر فيوضعون في رأس القائمة. هذا ما يمكن أن ألمحه ــ ولا أريد التجني على كاتب حديث الشهر في العدد (٣٣٠) من مجلة العربي حين يقول: ((وما أريد أن أقوله: إن تنشيط الطلب الاجتماعي على العلم والتقنية لابد أن يسبقهما خلق وعي عام بأهميتهما.. وفي تقديري المبدئي أن خلق هذا الوعي يجب أن يتكرس لدى القيادات الفكرية والسياسية.. هناك عزلة حقيقية بين القيادات الفكرية من مثقفين ـ من غير رجال العلم ـ وبين ما يجري في دنيا العلم على أيدي المقتصرين

---

(١) ـ العربي العدد ٣٣٤.

عليه)). ولقد صرح من قبل أيضاً الدكتور محمد الطالبي بهذه النقلة لتحويل مجرى البحث حيث قال: ((إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم إنما هو إلى حد بعيد إخفاق الجامعة قبل كل شيء؟))[1].

وفي نهاية المطاف، بعد الدوران والتذبذب، يعود المؤشر الباحث عن المشكلة، مشكلة العالم الإسلامي، ليشير إلى مفكريه، ليشير جهاز الكشف إلى ذاته فالخلل فيه، وبهذا الكشف المبين أثبت آدم كفاءته حين قال: ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنفُسَنا﴾ [الأعراف ٧/٢٣].

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ـ مجلة عالم الفكر المجلد الخامس العدد الأول ١٩٧٤ مقال بعنوان: التاريخ ومشكلات اليوم والغد.

الفصل الرابع
مالك بن نبي
بين النص ومشكلات الحضارة (الواقع)(*)

تمهيد:

حين تسلمت الدعوة، فكّرت ماذا ينبغي أن أختار من جوانب مشكلة الحضارة عند مالك بن نبي، ثم قلت: ليس أفضل من أن أتحدث عن مشاعري وصوري الذهنية التي حدثت لي حين اتصلت بأفكار مالك بن نبي والتصقت بها، فأرجو من الذين يطّلعون على هذه المشاعر والأحاسيس أن لا يأخذوها بأكثر من أنها أحاسيس ومشاعر لشخص معين، وفي ظروف خاصة، عن أفكار رجل آخر، فإن حَظِيتْ أحاسيسي ومشاعري بالقبول والاستحسان من بعض المستمعين والقراء، فهذا مما يسرني كإنسان تسره الحسنة، وإن قوبلت تصوراتي بالرفض فأرجو أن لا يزعجني ذلك، وأنا أرحب به لأنه يساعدني على مراجعة تصوراتي لتفادي جوانب النقص فيها.

بدايات التعرف على فكر مالك:

أولاً ـ كنت في عام ١٩٥٦ أدرس في الأزهر، وكنت متخرجاً للتوّ حين وقع

(*) ـ كتب هذا البحث في ١٩٩١/١٢/٢٥م، وأرسل إلى ملتقى الفكر الإسلامي الذي كان يعقد في الجزائر سنوياً، ولكنه لم يعقد في ذلك العام بسبب أحداث الجزائر.

في يدي كتاب (شـروط النهضـة) لمـالك بـن نـبي، وكنـت قـد عايشـت الثقافـة الأزهرية، وعشت أفكار السلفية من ابن تيميـة وابـن القيـم إلى الأفغـاني ومحمـد عبده ورشيد رضا إلى المودودي والبنا وقطب.

حين وقع في يدي كتاب (شـروط النهضـة) وجـدت فيـه نموذجـاً جديـداً في البحث غير الذي أعرفـه. في أول الأمـر لم أسـتطع أن أدرك الموضـوع بتكاملـه، وأحسست بومضـات، غـير أن الرجـل سرعان مـا تـلاءم مـع مـا كنـت أريـد، ووجدت ضالتي عنده، ولقد حدث لي ما حدث لجلال الدين الرومي حين التقى بشمس الدين التبريزي فقال:

هذه النار فما قصتها أحرقت ما عندنا وَقْدَتها

ومنذ ذلك الوقت لم يصدر له كتاب إلا وتلقفته وقرأته، ثـم لخصتـه تلخيصـاً مطولاً ثم مختصراً ثم أعدت قراءته وتدريسه وتدارسه، واعتبرت كتابه (الأفريقية الأسيوية) تفسيراً جديداً للقرآن الكريم في هـذا العصـر، ولعلـي قرأتـه أكـثر مـن عشرين مرة. فإذا قلت: أعتبره تفسيراً للقرآن فإنني أدرك أنه يصعب تصور ذلك، ولكن لي الحق في أن أتصور ما أريد، ولك الحق أن ترفض ذلك.

رأيت أن هذا الكتاب يبحث مشكلات العالم المعاصر، عالم الكبار والشعوب المستعمرة، ولأن القرآن يبحث مشكلات الإنسـان في الحيـاة فـإنني وجـدت فيـه الصلة التي كنت أنشدها ولثقافتي الأزهرية اسـتطعت أن أربـط بـين الموضوعـين، مهما كانت إمكانية الربط صعبة أو منعدمة عند البعض، ليس المهم الإكثـار مـن ذكر آيات الكتاب، ولكن الأهم هـو وضـع الواقـع تحت المجهـر بشـكل جلـي، وكان مالك يساعدني على هذا الربط، كأنه كان يعلّمني القـرآن بشـكل جديـد وأخاذ ومشوق ومجدٍ، قد يكون الذين يشعرون بمثل هذا الشـعور قليلـين وقـد لا يكون مالك نفسه حريصاً على أن يربط ما يقول بالقرآن والإسلام، لكنـه كـان

يضع الواقع المعاش الحي النابض تحت المجهر، وكنت أقوم أنا بعملية المطابقة والربط بالنص، لأن ثقافتي كانت ثقافة النص التي تعطي الأهمية أولاً وآخراً للنص، ولا تبالي بالواقع، وكان مالك بن نبي مغرماً بالواقع، بحسب تصوري، كان يعطي للواقع الأولوية في الفهم، ولم يكن يحاول هو نفسه أن ينطلق في بحثه من النص، وقد أكون ظالماً له بهذا القول، ولكن هذا هو تصوري، ولم يظهر لي الموضوع بهذا الشكل إلا مؤخراً، كنت أقوم في داخلي بالربط بين النص والواقع، ولولا القيام بهذه العملية الداخلية لما أمكن لي مسايرة مالك فيما يكتب، ولما استطعت الإعجاب به إلى درجة الشعور بأن المسلمين الآن أحوج ما يكونون إلى الجانب الذي يتناوله مالك بن نبي، ولو أردت أن أجعل عنواناً لهذا البحث لاخترت أن يكون:

مالك بن نبي: بين النص ومشكلات الحضارة (الواقع)

الانطلاق من الواقع:

لم يكتب مالك بن نبي كتاباً في التفسير ولا في العقيدة ولا في الفقه التقليدي، ولم يحاول أن يشرح نصاً من النصوص، لقد ترك هذه المهمة للمشايخ ولم ينازعهم اختصاصاتهم، وفي الواقع أن مالك بن نبي تفادى ذلك تفادياً عجيباً، فكان هذا من حسناته كما كان من نواقصه في آن واحد، كان من حسناته لأنه انطلق انطلاقاً صحيحاً حين انطلق من ملاحظاته ورؤاه في الواقع المعاش.

أقول مؤكداً ومشدداً: إن مالك بن نبي لم يتخذ النص سلاحاً في عملية البناء والإصلاح الذي يريده، بل كان سلاحه الواقع المعاش، والتأمل فيه، وقد نجح إلى حد كبير واستطاع أن يكتب من غير أن يدان بأنه زنديق مهرطق، ولكنه مع تفاديه لهذه الإدانة، فإنه لم ينجح في تحرير الفكر الإسلامي من آصاره وأغلاله المعوقة والخفية والصعبة الكشف والإبراز.

إن مالك بن نبي تفادى المواجهة بشكل ناجح وعجيب، وربما فعل هذا تلقائيـاً، ولم يكن ذلك عن وعي دقيق فمالك بن نبي لم يكن عالم كلام في أصول الدين، ولا مجتهداً في أصول الفقه، ولذلك ترك هذه المسأله الشائكة لأهلها يتجادلون فيها ويحمونها، لأنهم أهلها المفوضون للكلام فيها. لم تكن هذه المشكلة خفية عليه، ولكن الإحساس بها غير تحليلها من داخلها..

إن بإمكاننا أن نقول: لقد نجح مالك بن نبي نجاحاً كبيراً حين أمكنه أن يدخل ساحة الإصلاح انطلاقاً من الواقع لا من النص، إنه بذلك تمكن لأول مرة، وبأسلوب عجيب، أن يجذب اهتمام القارئ المسلم من غير أن يزعجه أو يفزعه، استطاع أن يبقى في الساحة، وليس معنى هذا أن المسلم لم ينظر إليه بريبة، ولم يحاول أن يحذفه من قاموس رجال الإصلاح والدعوة.

مالك والنظام الفكري السائد:

انظر إلى ما يقوله عبد السلام ياسين[1] بعد أن استعرض الحركات الإسلامية الحديثة من جماعة التبليغ والجماعة الإسلامية وغيرهما، ثم قال تحت عنوان (التغليف الحضاري):

((من بين كتابنا المسلمين المعاصرين رجل مكثر تحمل كتبه عناوين إسلامية، ويقبل على قراءته الشباب المتعطشون للإسلام هو مالك بن نبي، مؤلف كتاب (فكرة الإفريقية الأسيوية) غداة مؤتمر باندونغ، وكتاب (كومنولث إسلامي) وكتاب (وجهة العالم الإسلامي) وكثير غيرها، وكل من ينتمي إلى الإسلام ويدين بدين اللّه فهو أخونا.. بيد أننا نحب الوضوح ونحب أن تسير الدعوة الإسلامية على بصيرة من أمرها، الأستاذ مالك بن نبي طالب حضارة وثقافة.. وليس طالب إسلام ولا رجل دعوة، ويظلمه بعض إخواننا إذ يعده من رجال الدعوة والإصلاح... أما مالك بن نبي فرجل سياسة وفكر وحضارة وثقافة،

(١) ـ ندعو اللّه له بالتوفيق في إبداعه للعمل السلمي.

يصلّي ويصوم، ويعلن إسلامه، هذا شيء كثير جداً، لكنه لا يميز واقعين: واقعاً جاهلياً ظلمانياً، وواقعاً إسلامياً نورانياً..)) ثم يقول: ((آثرنا أن نعرض لأمثال السيد مالك بن نبي نصيحةً وتحذيراً لشبابنا الباحثين عن إسلامهم)).

ما هي خلفية النزاع؟ لماذا ينفي الأستاذ عبد السلام ياسين مالك بن نبي؟ ولماذا يتحاشى مالك بن نبي أيضاً مواجهة أمثال عبد السلام ياسين؟؟.

لا أريد هنا أن أثير مواجهة ومقابلة بين شخصين، بل أريد أن أرى خلف هذا مواجهةً بين اتجاهين فكريين، ونوعين من الرؤية وتفسير الأحداث الاجتماعية، بين نظامين للتفكير، نظامين في المرجعيات والمسلّمات، ما هي هذه المرجعيات والمسلمات؟ إنهما لا يذكرانها صراحة وبوضوح، ولكنها تحكم عملهما وفكرهما واتجاههما بشكل حاضر ومستمر.. إن مالك بن نبي ينطلق من الواقع لتحليله وتأمله ودراسته والخروج منه بالقانون الذي يحكمه، وسنة اللّه في المجتمعات، وإن كان مالك بن نبي لا يقوم بعد ذلك بمحاولة إصدار فتوى ضمن نظام الفكر العقائدي المتعارف عليه عند المسلمين، هذا النظام الفكري الخالد غير قابل لدخول شيء جديد عليه أو حذف شيء منه، إنه نظام فكري، حسب تصورهم، ممهور بخاتم رب العالمين، من غير أن يكون هذا النظام الفكري التفسيري قد تأثر أو مرَّ بأذهان البشر القابلين لأن يخطئوا في التفسير ويصيبوا..

لم يدخل مالك، و لم يكن يريد أن يدخل هذا المجال، و لم يكن في مقدوره أن يدخل هذا المجال، لأنه لم يكن من اختصاصه، لكنه كان يعرف هذا النظام معرفة جيدة، وكان يسمي هذا النظام الفكري العقائدي (علم الكلام)، وكان يسمي الإنسان الذي نتج عن هذا النظام (إنسان ما بعد الموحدين) كمصطلح لتحديده ومعرفته، وبأسلوب آخر كان يقول عنه: الإنسان القابل للاستعمار، والإنسان الذي يطالب بحقوقه ولا يعرف كيف يؤدي واجباته، كان يدور حول هذا

النظام الفكري من غير أن يحاول الدخول إلى مناطقه الساخنة المحمية، وكان يعلم ضمناً أن هذه المواجهة تتطلب أدواتٍ، وليس عليه إلا أن يعمل في منطقة أمان إلى حدٍ ما، في منطقة الواقع المعاش اليومي، وهذا الموضوع بحاجة إلى بلورة بأساليب مختلفة، لا يكفي فيه أن يكون الإنسان مدركاً للصواب، وكان مالك قد وضع عنواناً لفصل في كتاب (مشكلة الأفكار) يقول: صحة الأفكار غير صلاحيتها (صدق الأفكار وفعّاليتها). هذا العنوان يدل على أن مالك بن نبي كان يفرّق بين الأفكار المسيطرة الفعّالة والتي لدى الناس استعداد لأن يبذلوا أنفسهم من دون تردد ويزهقوا أنفس الآخرين من أجلها، لكن هذه الأفكار المسيطرة الفعّالة ربما تكون خاطئة ووهمية وليس لها أساس من الصحة، وإن كانت صالحة لإثارة الناس وسوقهم إلى المعارك مسترخصين أرواحهم وأموالهم في سبيلها، كما يمكن أن تكون الأفكار صحيحة علمياً وواقعياً ولكنها غير صالحة لتحريك الناس، بمختلف مستوياتهم بل يمكن بتحريض جملة الأفكار الخاطئة أن تطارد الأفكار الصحيحة.

إن هذا التفريق بين الأفكار العلمية الأقرب إلى الصواب، وإن لم تكن الصواب المطلق، وبين الأفكار الاجتماعية الخاطئة المسيطرة، هذا التفريق ليس قديماً في الحياة البشرية، والتاريخ أو الأحداث البشرية المتراكمة هي التي تكشف إمكانية التفريق، والأحداث التي رافقت الكشوفات الفلكية تبين هذا التفريق بوضوح، حيث كان الناس يظنون أن الشمس تدور حولهم، وكانت هذه الظاهرة راسخة ومسيطرة وبدهية، ويمكن حمل من يشك فيها على أن يتوب، ولكن قانون اللّه الغالب الذي يذهب بالزبد جفاءً، ويمكث في الأرض ما ينفع الناس، يقوم بغربلة الحقائق من الأوهام.

لا إكراه في التصورات الذهنية:

في عام ١٩٥٨ كنت في بلد محافظ، وكنت أحسن التصرف وفق نظام الفكر الذي يعيشه أهل تلك البلد، وكان رجل قاضياً في تلك المنطقة، وكان بيننا ودٌ، فقال لي يوماً ونحن منفردان: لِمَ هؤلاء الكفار لا يفهمون؟ كيف يقولون الأرض تدور؟! ألا يرون إلى الشمس كيف تشرق وتغيب؟!.

لم أستطع في الواقع أن أصحح هذه البدهية الخاطئة، فهذه الفكرة لها صلاحية الدفاع عن نفسها وإذا هاجمتها الأفكار الصحيحة فإن الأفكار الصحيحة لا قدرة لها على الثبات، فلماذا أحاول حتى مجرد أن أُظهر أني أشك في هذه البدهية؟ ولكن إذا كان من الممكن أن يقع الناس في مثل هذه البدهية الخاطئة وأن يكون هناك إجماع عليها، فما هي الأفكار التي يمكن أن نقول عنها: إنها غير قابلة لاحتمال الخطأ؟ ألا يعلّمنا هذا شيئاً من التواضع؟!.

من أجل هذا أظن أن الله قال لنا: ﴿لا إِكْراهَ في الدِّينِ﴾، أي لا إكراه في الاعتقاد، لا إكراه في التصورات الذهنية، لكلٍ أن يدين ويعتقد ويتصور ما يشاء، والجهاد شرع فقط لرفع الإكراه وترك الناس أحراراً يختارون ما يرونه صواباً، ويشترط لمن يجاهد أن يكون وصل إلى حكمهم برضاهم، كما صبر رسول الله ﷺ عشر سنين حتى وصل إلى الحكم بطريق شرعي، هذا ما يميز جهاد الإسلام عن جهاد الخوارج فيما نظن والله أعلم.

هذا الإيجاز المخل قابل للتوسيع، ولكن ليس هذا مكانه، وإنني بهذا أحاول أن أستنبط نظام فكر جديد فإذا كان الإكراه في الدين غير جائز، والجهاد إنما هو لتأمين حرية الفكر؛ فليعمل كلٌ جهده، وليزيّن للناس ما يظن أنه الحق، ثم قانون الله هو الغالب، هو الذي يذهب بالزبد جفاء ويُمْكِثُ في الأرض ما ينفع الناس، وإذا كنا زبداً فلنذهب جفاءً غير مأسوف علينا، ونحن واثقون من أن نور

اللّه لن يطفأ حتى وإن انطفأنا نحن.

نحن لا نشك في هذا ولكن نشك في أنفسنا وهذا هو طريق التصحيح الذي ألحّ عليه مالك في مصطلح القابلية للاستعمار، ومالك لم يكن يملك أدواته، ولكننا إن أخذنا ما جاء به وأضفنا إليه ما يكمله ويزيده فاعلية فإننا نكون أنصفناه واستفدنا منه وأفادنا.

مالك ومفهوم العلم:

كان صدره واسعاً جداً، وحين زار دمشق عام ١٩٧٢ سعدت جداً أن عرفته شخصياً بعد أن عشت مع أفكاره أكثر من خمسة عشر عاماً، وأظهرت له كل توقفاتي وتردداتي في بعض أفكاره، وكان مما قلت له: إن استخدامك لمصطلح العلم يأتي في كتاباتك على الفهم الغربي للعلم، فمثلاً تستخدم العلم جزءاً من الثقافة، بينما العلم في القرآن هو الذي يكشف الحق، فقال: نعم، العلم في القرآن في مكان عالٍ كريم وأنتم عليكم أن تكملوا هذه الأمور، فقلت له: مع ذلك إنك استخدمت العلم أقرب ما يكون إلى العلم في القرآن حين قلت في مشكلة الأفكار: ((والعلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح اللازم عليه))، وإن كنت لم تلتزم هذا الاستخدام..

بهذا تصبح الأخلاق علماً ولا يكون هناك أي مواجهة أو تقسيم بين العلم والأخلاق. فمالك بن نبي انطلق من عالم الواقع في جهاده للإصلاح وأغفل جانب النص[1]، وربما كانت المحاولة الوحيدة التي حاولها هي كتابه (الظاهرة القرآنية)، وهذا الذي ينبغي أن نتوسع فيه ليبلغ مداه في البحث، وهذا الجانب هو جانب العبقرية عند مالك، عبقريته أنه انطلق من الواقع، وعلينا أن نوسع ما

(١) ـ حين أقول أغفل جانب النص أعني أنه لم يناقش الأمور أصولياً ونصياً، فمثلاً فكرة قتل المرتد، المسلم يظن أنه إن لم يقتله فإنه يرتكب محرماً في الدين.

جاء به ونكمل عمله وندعمه أيضاً بالنصوص، ونعطي لأفكاره فعالية أكبر وأقوى.

الاتجاه النصي والحضارة:

أما الاتجاه الآخر المقابل فهو الذي ينطلق من النص واخترنا مثلاً لهذا الاتجاه هو الأستاذ عبد السلام ياسين، قائد جماعة العدل والإحسان في المغرب، الذي أمكنه أن يتجاهل الأستاذ مالكاً بسهولة ويسر، حسبه أن يصلي ويصوم وهذا كثير، ولا قيمة لبحثه ((في حضارة الجاهلية وثقافتها وخصائصها فهي حضارة ملفقة، ماذا نسمي الفكر الذي لا يكمل إلا بتفتحه على ثقافة مجوسية؟ ويحكم يا قوم! ويحنا والله وكيلنا!..)).

هكذا يلغي المنطلق النصي الحضارة وينعتها بالجاهلية ويلغي غاندي بكل استخفاف وينعته بالثقافة المجوسية!!..

إن لمالك بن نبي مقالة تحليلية رائعة في نظري بعنوان الأفكار الميتة والأفكار القاتلة في كتابه: (في مهب المعركة)، فيه يحلل واقعاً صغيراً عابراً عفوياً حدث لهم بينما كانوا يجلسون في ناد ثقافي يحضره أستاذ زيتوني نصي، وآخر تناول الشعر الذي قاله شوقي في مدح باريس، وشرح مالك كيف أن الأفكار الميتة تعانق الأفكار القاتلة، يقصد بالأفكار الميتة أفكار إنسان ما بعد الموحدين، الإنسان الذي صار قابلاً للاستعمار والاستضعاف، الإنسان الذي يفتح شهية المستكبرين، والأفكار القاتلة هي الأفكار الخاطئة، الفعالة في وقت قوة الحضارة والتي ستتحول إلى أفكار ميتة حين تكمل الحضارة دورتها، والأفكار الميتة التي عند المسلمين كانت أفكاراً قاتلة في وقت حيوتهم، ويضرب مالك بن نبي مثلاً شاذاً لعلاقة الأفكار القاتلة بالميتة، فمحمد إقبال كان ذا صلة بالعالم الغربي، ولكن صلته لم تكن صلة الباحث في المزبلة أو المقبرة، بل كانت صلة إنسان يرى

ويبصر أين تصنع الحضارة، ويعرف ما يختار منها وما يترك أكثر من غيره.

إن الاتجاه النصي لا يرى في الحضارة الغربية إلا أنها حضارة مادية غير روحية وغير إنسانية وغير أخلاقية، ونحن نكتفي بهذا الحكم ولا نرى الجوانب الإيجابية، لأن أفكارنا لا تبصر إلا بعين واحدة، أو لا تبصر إلا جانباً واحداً هو الجانب المظلم، أما الجانب الآخر المشرق فإن النظر الإسلامي يخفيه ويغيبه. ومثال ذلك أن هذه الحضارة وصلت إلى شيء وتمكنت منه، وهو اختيار الحاكم وعزله باستشارة الأمة وبطريق سلمي، لا باغتياله ولا بالقيام بثورة دموية عليه. هذا الأسلوب عجز عنه سلفنا الصالح، بل عجز عنه المبشرون بالجنة، فهم بالذات تقاتلوا في معركة الجمل ومعركة صفين، ويا ليت النجاح كان في نهاية الأمر لصالح الجانب الأقرب إلى الصواب، لقد نجح الجانب الأبعد عن الصواب، واستمر هذا الموضوع إلى يومنا هذا، وحتى المجوس الذين نسخر منهم، الهنود، بقوا متماسكين مع اختلاف أديانهم ولغاتهم، أما المسلمون الهنود الذين انشقوا عنهم باسم الإسلام فإنهم تفرقوا فيما بينهم ولا زالوا يعيشون الانقلابات الحمراء والبيضاء، فحينما يسخر المسلم من الحضارة المعاصرة التي تشعر بأنها حلت معضلة إنسانية، مهما كان يعتورها من نقائص، فهذا عائد لجهله، ولأنه لا يعرف أن هذه الحضارة المعيبة تَعُسُّ العالم وتسيِّره وتسيرنا صاغرين رغماً عنا، فكيف ينظرون إلينا حين نستخفّ بحضارتهم؟ أليس لهم الحق أن يذكرونا بموعظة عيسى عليه السلام: ((انزع الجذع من عينك ليمكن أن ترى القذى في عين أخيك بشكل أفضل))؟!..

يقول مالك بن نبي:

((إن هناك أنواعاً من الجهل لا يمكن الإغضاء عنها في القرن العشرين، وهناك إضافات لهذا القرن وقيم خاصة به لا تستطيع طبقة مثقفة مسلمة أن تجهلها دون

أن تشنع بنفسها، فليس من الممكن أن نعيش بنفسية المنعزل الذي يجهل قيم الآخرين))[1].

أقول: إن القيم التي قَتَلَتْ عثمان واغتالت علياً وصنعت معركة الجمل ومعركة صفين وحرب إيران والعراق وحرب الخليج التي لم تجف دماؤها بعد، إن هذه القيم حية وعندها استعداد أن تكرر نفسها مضروبة بتزايد السكان وتقدم التقنية، لأن الفكرة الأساسية التي أنتجتها لم تتغير..

وشيء آخر غير هذا هو أننا ننعت هذه الحضارة بالمادية وغير الأخلاقية وغير الروحانية، ولكن لننظر أي مكان في العالم يتساوى الناس فيه أمام القانون أكثر من غيره من البلدان؟ أفي هذه الحضارة التي ننعتها بالمادية وعدم الروحانية، أم في البلاد التي يتلى فيها ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل ١٦/٩٠]؟ في أي بلد من البلاد يأمن الإنسان المخالف فكرياً وعقائدياً على نفسه أكثر، في محور الجنوب أم في محور الشمال؟

إن المساواة أمام القانون ليست حضارة مادية، بل إن العدل بين الناس من أقدس ما نزل من السماء، وهنا لابد أن نستدرك بأن هذا العدل عندهم محصور في بلدهم، فكل هذه الموازين يتركونها حين يخرجون خارج بلدهم أو يكون حكمهم منصباً على محور الجنوب، وهذا لم يكن خافياً على مالك بن نبي لأنه ولد تحت هذا الحكم الجائر وعاش فيه وعانى مأساته بامتياز ومن هنا كان يسمي هذه الحضارة (الحضارة الجذبية).

الطاهر المقدس والدنس الحقير:

من المصطلحات الأثيرة عند مالك بن نبي مصطلح (الطاهر المقدس والدنس

---

(١) ـ فكرة الأفريقية الأسيوية /٢٨٦.

الحقير) الذي يستعمله كثيراً في بحوثه، هـذا المصطلـح يعبر عـن مشـكلة إنسـانية بشرية، فالإنسان يرى نفسه مبرأ ومنزهاً ومقدسـاً، ويرى الآخـر متهمـاً ودنسـاً وحقيراً.

والقرآن ضرب لنا أمثلـة مـن تـاريخ الشـعوب وعلّمنـا أن نرجـع إلى التـاريخ دائماً، فقال لنا: ﴿وَقالَتِ الْيَهودُ والنَّصارى: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّه وأَحِبّاؤُهُ، قُـلْ: فَلِـمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ [المائدة ٥/١٨].

ولسنا نحن وحدنا، معشر المسلمين، من قال: لـن يدخـل الجنـة إلا مـن كـان مثلنا، لقد سبقتنا أمم أخرى بهذا ((شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخـزم))[1] ﴿وقَـالوا: لَـنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هوداً أَوْ نَصارى﴾، [البقرة ٢/١١١]، ولسـنا أول مـن اعتـبر نفسـه طـاهراً مقدسـاً والآخريـن دنسـاً حقـيراً. ﴿وَقـالَتِ الْيَهـودُ لَيْسَـتِ النَّصارى عَلـى شَـيْءٍ، وَقـالَتِ النَّصـارى لَيْسَـتِ الْيَهـودُ عَلـى شَـيْءٍ﴾، [البقـرة ٢/١١٣].

هذه الأمور صارت معروفة من خـلال الدراسـات الإنسـانية فكـل الشـعوب ترى لنفسها نسباً إلهياً سماوياً وليس من تراب.

لكن القرآن حين عرض هذا الموضوع وحكى عنهم أنهم قـالوا ﴿نَحْـنُ أَبْنـاءُ اللَّه وأَحِبّاؤُهُ﴾ لم يحك عنهم هذا في معرض المدح، بـل في معـرض الـذم، وكـل البشر الذين يعتقدون هذا يظنون أنهم صادقون كما نظن نحن المسلمين.

---

(١) - مَثَل يُضرب للرجل يشبه أباه، والمثل لجدّ حاتم بـن عبـد اللَّـه بـن الحَشْـرج ابـن الأخزم وكان أخزم من أكرم الناس وأجودهم فلما نشأ حـاتم وفعـل مـن أفعـال الكرم ما فعـل قـال: (هـي شِنْشِـنَةٌ أعرفهـا.....))، جمهـرة الأمثـال للعسـكري (٥٤١/١) رقم (٩٩٥).

الحق أقول لكم: إنني لم أستطع أن أتخلص من هذا مهما تحدثت عنه من الناحية العقلية، وقد غرس فيَّ أن لي دالة على اللّه لأنني مسلم، لا بما أقدم من عمل صالح، لهذا أمر اللّه نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن كنتم أبناء اللّه وأحباءه فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم؟

علاقة المسلم بدينه:

يا مسلمون إن كنتم أبناء اللّه وأحباءه فلم يعذبكم بذنوبكم؟ لماذا أنتم يا مسلمون (مبهدلون) في العالم كله إلى هذه الدرجة؟ بل أنتم بشر مثل سائر البشر، بل ورسولنا ﷺ بشر، وموضوع أنه يوحى إليه ينبغي أن يكون له بحث خاص. وقد علمنا اللّه هذا وقال لنا: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَبِه﴾ [النساء ١٢٣/٤]. إن مالك بن نبي لم يحاول أن يدخل في هذا الموضوع وبهذا الأسلوب وكان يسميه كلاماً، ولمالك عذر حين ترك هذا الموضوع و لم يحاول البحث فيه، فقد تناوله بشكل آخر، قال معرفاً بالعلاقة بين المسلم ودينه: ((إن هذه العلاقة مزدوجة إذ هي روحية واجتماعية، فالعلاقة الروحية قوية سليمة لا يمكن مسها باعتبارها يقيناً ومطلقاً، والضمير المسلم لا يشعر بأي نوع من القلق الميتافيزيقي... ولكن العلاقة الاجتماعية على العكس من ذلك أفسدتها المشاكل التي تفرضها الحياة على كل مسلم... وينتج عن هذا أخيراً نوع من النفاق في العلاقة الزمنية بين المسلم والإسلام، وإذا لم ينكشف هذا النفاق انكشافاً مفضوحاً، بأن يحطم المسلم ارتباطه وينكر عقيدته فإنه يتجلى خاصةً في الميدان الفكري في صورة عجز عن مواجهة مشكلات العالم الإسلامي والتفكير فيها بصراحة وملاءمة.. هذه العلاقة المعيبة بين المسلم وأشياء يسمو بها إلى مرتبة المثل الأعلى لأنه يرى فيها تأثير الفكرة الإسلامية في المجال الاجتماعي، هذه العلاقة المعيبة تخلق لديه نوعاً من الحرمان ونوعاً من عدم

الإخلاص الأدبي الذي يصرف نظره أحياناً عن بعض المشكلات خوفاً من أن يصطدم بمحرم في الدين، هذا ناتج في نفسه عن عقدة الحرمان حين يواجهها صراحة، فهو عندما يعالج مرضاً في المجتمع الإسلامي يشعر كأنه يسيء الظن بالإسلام...))[1]. هذه المقاربة للمشكلة من مالك بن نبي مقاربة مهمة، وإن كنا نرى أنها غير كافية، وهذه مشكلة لدى كل مسلم بحسب درجته، فمالك حاول أن يجعل العلاقة مزدوجة واعتبر المسلم خالياً من القلق الميتافيزيقي، فهو يؤمن بالله ورسوله بارتياح، وعقيدته قوية وسليمة، وهذا في عمومه صحيح، ولكن ماذا عن العلاقة الثانية؟ العلاقة الاجتماعية، ونحن في حاجة إلى مصطلح آخر غير الاجتماعية لأن مصطلح الاجتماعية غامض، فالقارئ المسلم لا يمسك بأبعاده ويحدث له تصوراً غامضاً لا يحل له المشكلة ولكن نقف عند ((عدم الاخلاص الأدبي... خوفاً من أن يصطدم بمحرم في الدين... فهو عندما يعالج مرضاً في المجتمع الإسلامي يشعر كأنه يسيء الظن بالإسلام)).

عالم الأفكار وعالم الأشخاص:

أقول: إن المشكلة بكامل أبعادها تكمن هنا، وهي دقيقة ومتداخلة جداً، وكل واحد منا لديه مقدار من الشعور بأن مرض المسلمين غير داخل في الإسلام، وأن الإسلام شيء ومرض المسلمين شيء آخر، هذا بعمومه صحيح، غير أن هناك هامشاً يختلط فيه الإسلام بالمسلم، وهذا الهامش ليس محدوداً، بل هو كبير وواسع عند بعض الناس، بحيث يحسب الإنسان العادي أن ما يقوله شيخ القرية هو الإسلام بالذات، فإذا قال أحد: أخطأ الشيخ، فكأنما قال: أخطأ الإسلام! قد نجد عند هذا الحد أنصاراً كثيرين يفرقون بين مرض المجتمع الإسلامي وبين الدين الإسلامي، ولكن كم عدد الذين يمكنهم أن يتابعوا معنا

(١) ـ فكرة الأفريقية الأسيوية /٢٩٢.

المسير على هذا الخط؟ وخاصة فيما يتعلق بالكلام الذي سبق أن ذكرناه، من أن المبشرين بالجنة هم الذين تقاتلوا قتالاً شديداً من أجل انتقال الحكم من شخص إلى آخر، وأن الغلب في النهاية كان للجانب الأبعد عن روح الإسلام، وأن الكفار اهتدوا إلى طريقة في حل هذه المشكلة بالذات أقرب إلى روح الإسلام من الأسلوب الذي حل به المسلمون هذه المشكلة، فكما اهتدوا إلى وسائل غير الخيل والبغال والحمير للانتقال؛ كذلك اهتدوا إلى طريق لحل مشكلة انتقال الحكم أقرب إلى روح الإسلام، وأقرب إلى نفوس الناس من الأسلوب الذي بدأ منذ المبشرين بالجنة إلى يومنا هذا، وهو انتقال الحكم بالقتل غيلة، ومواجهة الخطأ بالخطأ وبالسحق حتى العظم، وبالسحل في الشوارع. حين أقول هذا لا أقوله لأنني صرت أسيراً للغربيين أو منكراً لله ورسوله والمؤمنين، ولكن لأن الخطأ خطأ، ولو صدر من الأقربين المحبوبين المفديين بالنفوس والأرواح، والصواب صواب ولو صدر من الذين نكرههم وبيننا وبينهم نزاع حضاري، وقد علمنا اللّه أن الآباء، مهما جلّوا وكثروا، ليسوا هم المرجع وأن الذين قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ [البقرة ٢/١٧٠]، ليسوا هم المقدسين عند اللّه. ومشكلة توسيع دائرة المسلمين، بحيث لا يختلط الإسلام بالمسلمين مع صعوبتها ليست مستحيلة، وحتى إذا كانت مستحيلة على الإطلاق، فإن بإمكاننا أن نَبلُغَ فيها مدى واسعاً تخف فيه المآسي، وكل المصلحين تعترضهم مشكلة سنة الآباء والأقدمين واختلاطها بسنة اللّه التي لا تتغير ولا تتبدل، والآباء مهما جلوا وعظموا خاضعون لسنن اللّه، وأشعر هنا أننا ينبغي أن نخدم القرآن في هذا الموضوع.

وإذا كان القرآن ينتقد اللجوء إلى الآباء فهذا لا يعني أن فعل المسلمين لذلك يجعلهم مستثنين من الإدانة، ولا يعني أن لدى المسلمين مناعة ضد مرض تقليد

الآباء، بل لقد اتبعوا فيه سنن من كان قبلهم حذو القذّة بالقذّة.

وقول اللّه تعالى عن السابقين: إنهم كانوا يواجهون الأفكار الجديدة بقولهم: ﴿ما سَمِعْنا بهذا في آبائِنا الأوَّلينَ﴾ [القصص ٢٨/٣٦] ليس معناه أن هذا محرم على الأقوام الأخرى فقط، وأن الواجب على المسلمين هو أن يرفضوا ما لم يسمعوه من آبائهم الأولين.

حين ذكر الأستاذ مالك الكلام الذي نقلناه؛ عن خوف المسلم من أن يصطدم بمحرم في الدين إن عالج مرضاً من أمراض المجتمع الإسلامي، ضَرب مثلاً تصرفاً من تصرفات سيد قطب، ولا حرج في ذلك فسيد نفسه يعاني هذه المشكلة، ومالك نفسه لم يخل منها وأنا نفسي أعاني ذلك أيضاً، وأرجو أن يأتي بسرعة من يكشف قصوري وقصور الآخرين، دون أن نسيء إلى أحد أو نقلل من جهوده. إننا جميعاً نعمل في مهمة مقدسة هي إعادة الحياة لمليار من البشر، وإذا كان بعض الناس انتصروا لسيد وبعضهم لمالك في هذا الموضوع فإن المشكلة أكبر من هذه الحوادث الجزئية، ولقد بلغ سيد رحمه اللّه مبلغاً كبيراً في هذا الموضوع بالذات، وأظن أنه حطم الرقم القياسي بدفع الفكر الإسلامي إلى مستوى مرموق، وذلك حين قال: ((إن منهج اللّه ثابت... والبشر يبتعدون أو يقتربون من هذا المنهج... ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوباً على المنهج.. ونتعلم نحن من هذا أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج، وأنه من الخير للأمة الإسلامية أن تبقى مبادئ منهجها سليمة ناصعة، وأن يوصف المخطئون بالوصف الّذي يستحقون، وألا تبرر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبداً بتحريف المنهج، فهذا التحريف أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ والانحراف)).

قال هذا في التعقيب الأخير على غزوة أحد في تفسير آل عمران، هذه

القاعدة مقبولـة نظرياً إلى حـد مـا، ولكـن مـن هـم هـؤلاء الشـخصيات الذيـن وصفهم سيد رحمه اللّه بكبار الشخصيات المسلمة؟ هـل نستطيع أن ندخـل في التفاصيل ونذكر بعض الأشخاص بالأسماء؟.

وقد عانى سيد مشكلة عالم الأشخاص، وسيطرة عالم الأشخاص على عـالم الأفكار والسنن، كما عانى ذلـك مـالك بـن نـبي، وكتـاب (الصـراع الفكـري) لمالك كله تقريباً متعلق بهذا الموضوع الخطـير، وكلنـا نعـاني مـن هـذه المشـكلة ابتداء من علي بن أبي طالب حين قال: ((ويلك لا تعرف الحق بالرجـال اعـرف الحق تعرف أهله)). وأرجو ألا نتبـادل عبـارات الاسـتخفاف ببعضنـا، فـالأعرج يمين جدير به ألا يسخر من الأعرج شمال، ورحم اللّه من كمل أفكارنا بإضافـة ما ينقصها، وسيد تقدم شوطاً كبيراً في التخلص من عالم الأشخاص مهما كـانوا كباراً، وذلك حين سجل في كتابه (العدالة الاجتماعية)[1]: ((إنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمـان، ولكـن مـن الصعـب كذلـك أن نعفيـه مـن الخطأ الذي هو خطأ المصادفة السيئة في ولايته الخلافة وهو شيخ تحيط به حاشية سوء من أمية ذات الفطرة المشؤومة))، ثم يقول عن الفتنة الـتي قـامت: ((ولكـن لابد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام أن يقـرر أن تلك الثورة في عمومها أقرب إلى روح الإسلام واتجاهه من موقف عثمـان أو بالأدق من موقف مروان ومن ورائه بنو أميـة الذيـن لم تخـالط روح هـذا الديـن نفوسهم في يوم من الأيام)).

لا نذكر هذا الكلام للتعظيم، ولا للادانة، فإن هذا الكـلام يحمـل تطلعـاً هـو التطلع نفسه الذي يحمله مـالك في ألا تختلـط أمـراض المسـلمين بالإسـلام، هـذا قاسم مشترك ينبغي أن نعالجه بكل الرفق وبكل الحـذق وبكـل الاحـترام، ونحن

---

١ ـ الطبعة الرابعة /١٩١.

حين نذكر هذا إنما نذكره لنبين أن العالم الإسلامي كله يريد أن يتخلص من أمراضه الجديدة والقديمة في آن واحد، وهذا سعي جدير بالتزكية، فإذا حذقنا هذا الموضوع فإننا نشيد بجهودهما جميعاً، مع ما ينقص تحليلاتهما من الدقة والوضوح والعمق والاتساع، فلابد من أمثلة مبينة، ومالك وإن كان أرسخ في السننية، إلا أن سيداً أجرأ منه في وضع الأصبع على الداء الذي تبين له، وكما يقول ابن تيمية: ((علينا أن ننصر الحق ونرحم الخلق)) ونتقبل منهم جميعاً أحسن ما عملوا ونشكرهم عليه، وأن نبذل جهوداً كبيرة في المتابعة لتوضيح وتوسيع وتكملة ما بدؤوا به، وإتمام النقص حيث أنقصوا.

الولادة العضوية والولادة الفكرية:

والآن أشعر أن علي ألا أقف عند هذه التحليلات، وأنه ينبغي أن نبحث عما وراءها من مشكلات اعتقادية فلسفية، كيف بدأ الخلق؟ ما هو الديني وما الدنيوي؟ ما هو الإلهي وما هو البشري؟ لأننا إن تركنا هذا الموضوع وإعادة بنائه وتوضيحه؛ فإن كل ما ينبى على الأساس الغامض يبقى غامضاً، وهذه وإن كانت مشكلات كبيرة يشعر الإنسان بالرهبة في تناولها، إلا أن المشكلة بل المشكلات ترغمنا على الخوض فيها...

لقد حدث في العالم الذي نعيش فيه تطورات هائلة في المعرفة. إن الإنسان من الناحية البيولوجية يمر بمرحلة ولادة عضوية انتقالية هائلة حين ينفصل عن أمه التي كانت تغذية وتحميه، هذا المولود بهذا الانفصال يضطر أن يستخدم أعضاء جديدة لم تستخدم قط من قبل، لذلك كانت الوَفَيَات كثيرة عند هذه المرحلة بالذات، لكن الإنسان يتعرض لولادة فكرية أيضاً، كما يتعرض لولادة عضوية، فكما أنه يعيش جزءاً من والدته ثم يضطر للاستقلال عنها شيئا فشيئاً، وحتى بعد الولادة فإن مدة طويلة يقضيها الطفل وغذاؤه من جسد أمه ويعاني كثيراً

عنـد الفطـام؛ كذلـك فإنـه يعتمـد فكريـاً علـى موروثاتـه إلى أن ينضــج فيولــد وينفصل، والبشرية الآن تتعرض لمرحلة ولادة فكريـة جديـدة، فقـد كـان البشـر يعيشون في رحم الآباء والأمهات ويتغذون من لحم معرفتهم ودم تصوراتهــم إلى أن بدأت الولادة الفكرية الجديدة، وحين نـزل القـرآن لم يكـن أحـد مـن البشـر يعرف أين طرف الأرض، ولا كم صار للإنسان عليها، ولا أنه عــاش حينـاً مـن الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، ولا أنه لم يتعلم الزراعة واسـتئناس الحيـوان إلا مـن عشرة آلاف سنة، ولا أنه لم تدخل الكتابة في حياة البشــر إلا منـذ خمسـة آلاف سنة، وبشكل محدود جداً، حتى بدأت الطباعة قبل أربعة قرون!!..

الإسلام والمسؤولية الفردية:

إن الصورة التي كان يحملها الإنسان عن العالم تغيرت كليـاً، وانفصلـت عـن الأفكار التقليدية، وأصبح مطلع الشمس ومغيبها أموراً رمزية، ولكننا نحن، العالم الإسلامي، لمّا ندخل هذا العالم الجديد بعد، ولا نزال نعيش متخيلات الأقدمـين، لم نتعـامل بعـد مـع الأرض الـتي تتحـدث بأخبارهـا بلغــة غــير لغــة الحــروف والكلمـات، ولم نتعـامل كذلـك مـع المجتمعـات لنحـول عـالم الغيـب إلى عــالم الشهادة. وحين ألحّ القرآن على المسؤولية الفردية في الآخرة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِـنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيــهِ﴾ [عبسى ٨٠/٣٤-٣٥] فإنـه حـدد كذلـك معنـى المسـؤولية الفردية في الدنيا، فلا يقبل من الإنسان أن يتبع سادته وكبرأه فيما يقولـون، لأنـه مسؤول عن سمعه وبصره. هذا التصور للفردية الإنسانية شـيء جديـد في العـالم، هذه هي الولادة الفكرية الجديدة، هذه هي البذرة التي لم تَنْمُ إلى الآن، ولم تظهر ثمراتها، لأن الإنسان كائن مقلد ولا يمكن أن يستقل إلا إذا تدعّم بالمعلومات التي تتحدث عن تاريخه في الوجود، والمعرفة هي التي تحرره، لذلـك صـار كتـم العلـم

من أكبر الكبائر[1].

إن المشكلة الكبرى في العالم الإسلامي هي ظنهم أن كلام اللّه أدل على الأحداث التي تقع ضمن سننه من الأحداث نفسها، وإنني أعتبر هذا الظن مثل ظن الناس قديماً أن الشمس تدور حولنا، هذه البدهية، أعني بدهية دلالة الأحداث على قانون اللّه أكثر من دلالة كلامه على القانون الذي صمم عليه الكون وصمم عليه الإنسان فرداً وجماعة، والفكرة المقابلة لها قد تُفزع المسلمين لأنهم حذفوا دلالة الواقع من حسابهم، وظنوا أن دلالة الكتاب أدقّ وأوضح وأولى من دلالة تاريخ البشر. على الخطأ والصواب، ويمكن أن يحدث هذا الاشتباه في أول الأمر، ولكن عند التأمل يتبين أنه صواب.

إنني أعرض مشكلات مزعجة، وليست من المتداول، أو ليست من المشكلات المطروحة أو التي يفكرون فيها، ولكن لابد مما ليس منه بد، فإذا كان علينا أن نخرج مما نحن فيه فعلينا أن نتعلّم أولاً كيف نفتح أسماعنا وأبصارنا، فإن أول كلمة نزلت من السماء كلمة اقرأ، بالقراءة نتعلم علم العالم، ولكن من البدهيات أيضاً أننا حين نفرغ من علم العالم الذي سجلوه في الكتاب، فليس أمامنا كتاب آخر نقرؤه، عندها علينا أن نبدأ بفتح السمع والبصر إلى الموضوع الذي تحّدثت عنه الكتب، لنرى فيه أشياء جديدة، أي علينا أن نرجع إلى مواضيع البحث في الكون والإنسان.

لماذا كان من الضروري بحث هذا الموضوع؟ لأن إعطاء الأولوية لوقائع

---

(١) - يشير إلى حديث: ((من سُئل عن علم فكتمه جيء به يوم القيامة وقد ألجم بلجام من نار)). أخرجه الحاكم (١٠١/١) في العلم وصححه على شرط الشيخين، والترمذي: العلم باب ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٩) وقال: حسن.

الكون يجعلنا ننتقل من الآباء إلى سنن اللّه التي تحكمنا وتحكم الآباء، وإلا فإن الكتاب، ولو كان القرآن، يمكن أن يفهمه كل أحد كما يريد، وكما يحدد له نظام تفكيره، يحذف منه من غير شعور ما يحذف، ويضيف اليه ما يضيف، ويضخم ما يضخم ويهزل ما يشاء...

ضرورة إعادة النظر في مناهج المسلمين:

طبعاً لست على جهالة من أن المسلمين بذلوا جهوداً جبارة في وضع حدود وقوانين دقيقة لفهم وإدراك مراد اللّه من الكتاب من بحوث لغوية ومنطقية ووثوقية بالأشخاص، ولكن هذه الشروط التي وضعوها وأبرزوها جهدّهم بحاجة إلى إعادة نظر، ومالك بن نبي لم يكن هذا اختصاصه، ولذلك ترك هذا كله للمتجادلين فيه، وبدأ يفتح سمعه وبصره على الوقائع الاجتماعية، وعلى إضافات هذا القرن إلى المعرفة البشرية. ترك المشكلات الأخرى على حالها ولكن ليس في الإمكان أن ينسى المسلمون كتاب ربهم جل جلاله، ولا سنة رسوله ﷺ، ولذلك عليهم أن يكشفوهما من جديد وأن يروا آيات اللّه في الآفاق والأنفس حتى يعلموا صدق اللّه في كتابه، وصدق رسوله فيما قال وفعل.

إن الفلك الدوار أدل على صنع اللّه وسننه وخلقه من الكتاب الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، بلغة العرب، مهما كان بليغاً.

وكان في الإمكان أن يظل المسلمون كما فعل أهل الكتاب السابقين يقتل بعضهم بعضاً، فكلٌّ معه نص يحتج به، لكن الذي نظر إلى الفلك الدوار قطع حجج المتحاجّين.

كم كان مؤسفاً ومحزناً أن نرى المسلمين يتبارون في الفتاوى في حرب الخليج؟ يتبارون في جواز الاستعانة بأهل الكتاب وعدم جوازه، حتى العجائز

الأميات شعرن بالقرف، والحمد لله فقد حدث تقدم جيد في عوام الأمة، وإن كان لا شعورياً لعدم معرفتهم بالتاريخ والأحداث العالمية، فقد شعروا بأننا بحاجة إلى أسلوب آخر غير هذا في فهم المشكلات، وفي فهمنا عن اللّه ورسوله.

وعليٌّ كرم اللّه وجهه شعر بهذه المشكلة ولم يكن هو الذي دعا إلى التحاكم لكتاب اللّه ورفع المصاحف على الرماح، والذين رفعوا شعار (لا حكم إلا لله) أرادوا التلاعب بكتاب اللّه، بعضهم كان على علم بالتلاعب، مستغلاً جهل الناس بالوقائع، وبعضهم كان على جهل مطبق. وكتاب اللّه، وإن نزل من السماء، لم يصل إلى البشر إلا برموزهم. ليست الكلمات هي الحقيقة، بل هي رموز عن الحقيقة، وهذه نقطة كبيرة أخرى يحصل فيها الوَهَم والخطأ، وإن كان كثير من الناس يظنونها صادقة وحقيقية. لا يمكن أن ننقل المعرفة إلى البشر إلا بلسانهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم ٤/١٤] أو بالوقائع، ومن هنا كانت النظرة العابرة التي تقول عن الكون إنه كتاب اللّه المنظور، وعن الكلام المنزل إنه كتاب اللّه المسطور المقروء نظرةً معبرةً وموحيةً، واللّه تعالى يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسونَ﴾ [الأنعام ٦/٩].

الكتاب رمز يفسره الجهاز العصبي عند الإنسان، فحين اعترض الخوارج على عليّ من أنه حكّم الرجال في دين اللّه أخذ يضرب على المصحف ويقول: ((انطق يا كتاب اللّه!)) إنما ينطق به الرجل إنه لا ينطق بنفسه. والعلاقة بين كتاب اللّه والواقع علاقة زوجية يحدث عنها توالد، والقرآن لم ينكر هذا، بل حث على النظر إلى الكون والتاريخ البشري ليعلم صدق ما جاء به الكتاب.

إقبال ومالك والفكر الديني:

إن اللّه لم ينزل على البشر كتاباً حتى تعلم الناس كيف يكتبون، وحتى تهيؤوا للفهم عن سننه في الكون والأمم وختم النبوة.

إن إقبالاً قال: لم أر إلا عاشقاً واحداً هو أبو يزيد البسطامي، اشتهى البطيخ كذا سنة، ثم حين وجدها قال: صحيح أن الرسول ﷺ أكل البطيخ ولكنني لا أعلم كيف أكله، إذن عليّ أن لا أذوقه. ولكنني أقول: إنني لم أر أحداً أبرز مغزى ختم النبوة مثل محمد إقبال.

إن مالكاً لم يطمع كثيراً بمحاولة تجديد أصول الدين بالمواجهة والاقتحام، لكن إقبالاً استشرف إلى هذا المقام حين كتب كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام)، وهناك الآن من شعروا بضرورة ذلك، ولكن إقبالاً لا يزال في تصوري وحسب اطلاعي المحدود منفرداً.

لقد زال من قلبه الرعب من المتزعمين للدين والمحتكرين للعلم، فهو يقول معللاً ما أصاب المسلمين من انحلال: ((إن رجال الفكر المحافظين كانوا يخشون من انحلال اجتماعي بعد الانحلال السياسي، فركزوا جهودهم كلّها في أمر واحد: هو الاحتفاظ بحياة اجتماعية مطّردة واحدة للناس جميعاً، وأبدوا في سبيل ذلك غيرة شديدة، فأنكروا كل تجديد في أحكام الفقه التي وضعها الرعيل الأول من الفقهاء، وليس من شك في أنهم كانوا على شيء من الصواب، لأن النظام يقاوم الانحلال إلى حد ما، على أنه قد فاتهم كما فات علماءنا المحدّثين كذلك أن مصير شعب من الشعوب لا يتوقف على النظام بقدر ما يتوقف على قيمة الأفراد وقوتهم؛ والجماعة التي يسودها التنظيم الزائد يتلاشى فيها الفرد من الوجود تلاشياً تاماً، إذ هو يجني قطاف كل ما حوله من تفكير اجتماعي، ولكنه يفقد روحه هو، ولهذا فإن تبجيل التاريخ الماضي تبجيلاً زائفاً وبعثه المصطنع

ليس علاجاً لانحلال شعب من الشعوب... فالقوة الفعالة الوحيدة التي تقاوم قوى الانحلال هي تنشئة أفراد ذوي فردية قوية، ومثل هؤلاء الأفراد هم وحدهم الذين تتجلى فيهم أعماق الحياة، فهم يجهرون بمقاييس جديدة نبدأ نرى في ضوئها أن بيئتنا ليست واجبة الحرمة في كل شيء، بل تفتقر إلى التعديل. والميل إلى المبالغة في التنظيم بإظهار احترام زائف للماضي، الأمر الذي تلاحظه عند فقهاء المسلمين... كان مخالفاً لروح الإسلام)).

ثم يضرب إقبال بابن تيمية مثلاً على الشخصيات المتفردة في الجهر بمقاييس جديدة ولكني أقول: إن ابن تيمية مع كل ما أتى به من تجديد كان من المحافظين الذين يغارون غيرة شديدة، فهو مثل الذين وصفهم إقبال في النص السابق، حيث كان ابن تيمية يعقب كثيراً على فتاواه بقوله: ((هذا هو الحكم، ومن أنكر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل)). ويذكر ابن تيمية بكثير من الاستحسان أن خالد بن عبد اللّه القسري ذبح الجعد بن درهم في عيد الأضحى وقال للمسلمين: ((تقبل اللّه ضحاياكم يا مسلمون! فإني مضحٍ بالجعد بن ردهم)). وذلك لأنه يقول: إن اللّه لم يتخذ إبراهيم خليلاً. ولكنّ الذي خفي على ابن تيمية حين أعطى لنفسه مثل هذا الحق أنه بالمقابل صار للآخر الحق في ممارسة الشيء ذاته على ابن تيمية إن لم يرجع عن آرائه، إن صار السلطان معه، ولذلك لم يكن موت ابن تيمية في السجن، وقد منعت عنه أدوات الكتابة، غريباً على منهج الفكر السائد، وإن كان هذا المصير مأسوياً حقاً.

أليس المعتزلة هم الاتجاه العقلاني في العالم الإسلامي؟، ثم أليسوا هم الذين كانوا يجلدون الإمام أحمد بن حنبل؟ لقد كان المعتزلة يشعرون بأنهم يبخعون الإسلام، إذا تركوا على قيد الحياة أحداً يخالف اعتقادهم وصورهم الذهنية عن قدم القرآن أو حدوثه.

المسلمون والخوف من محرمات الدين:

إنني هنا أعيد كلمات مالك بن نبي مرة أخرى حين يقول عن العلاقات المعيبة بين المسلم والإسلام: ((هذه العلاقة المعيبة تخلق لديه نوعاً من الحرمان، ونوعاً من عدم الإخلاص الأدبي الذي يصرف نظره أحياناً عن بعض المشكلات خوفاً من أن يصطدم بمحرم في الدين ناتجاً في نفسه عن عقدة الحرمان حين يواجهها بصراحة، فهو عندما يعالج مرضاً في المجتمع الإسلامي يشعر كأنه يسيء الظن بالإسلام)).

ألسنا الآن نخاف من أن نصطدم بمحرم في الدين إن لم نصدر حكم الإعدام على سلمان رشدي؟ بل إننا نشعر أن من لم ير مثل هذا الحكم يقتل أيضاً، كما قتل رجلان في المركز الإسلامي في بلجيكا لأنهم قالوا: إنه ليس من الضروري أن يقتل سلمان رشدي. لقد أعطى اللّه فرصة التوبة للخاطئين، ولكننا باسم اللّه ومرضاته لا نقبل توبتهم!!..

أليس مما يدعو إلى التأمل أن المسلمين أخذوا بقول أو فعل حدث في التاريخ الإسلامي لظروف طارئة، ولتهديد الذين يريدون أن يتلاعبوا بالدخول في الدين فيؤمنوا في أول النهار ويكفروا في آخره، أليس مما يدعو إلى التأمل أن تتخذ هذه الحالة الطارئة دستوراً ويلغى الدستور الإسلامي الذي يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؟

إنه ليس غريباً بعد هذا أن يعيش أربعون ونيّف من الدول الإسلامية في حالة طوارئ مستمرة، دون أن تخرقها حالةٌ دستورية.

وفي ظني أن هذه المشكلات ستنتهي تلقائياً حين نجدد العلاقة بين كتاب اللّه وبين الوجود الموضوعي الذي يتحدث عنه كتاب اللّه.

المسلمون وفقدان العلاقة بينهم وبين القرآن:

علينا أن نعلم أن قوانين فهم الكتاب سواء أكان كلاماً بشرياً أم إلهياً قوانين واحدة، بل إنه إن أغلق علينا فهم كلمة من كتاب اللّه نلجأ إلى الأعرابي لنفهم معناها لأن اللّه تحدث إلينا بالرموز نفسها التي كان يتخذها العرب للتخاطب ..

أي أنه استعمل (الشيفرة العربية)، لأنه ـ اليوم وغداً ـ لا يمكن للبشر أن يستغنوا عن الكتاب وعن الرمز للتعبير عن الصور الذهنية، وعن الواقع، فالعلاقة بين الكتاب والواقع علاقة أبدية في حياة البشر، ولا يمكن أن ينفصلا، وكذلك العلاقة بين كتاب اللّه ومخلوقات اللّه، فاذا انفصلت العلاقة فَقَدَ الإنسان وجوده المتميز القادر على التسخير، وبهذا فقدنا نحن المسلمين الوجود المتميز للبشر، حين انقطعت عندنا العلاقة بين كتاب اللّه وخلق اللّه..

ظهرت هذه العلاقة بوضوح في حوار دار بين الرسول ﷺ وبين صاحب له حيث تحدث الرسول ﷺ عن أمور تَحْدُثُ في حياة المسلمين حيث يختلس العلم، فقال له صاحبه: يا رسول اللّه! كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فواللّه لنقرأنّه، ولنقرئنّه أبناءنا ونساءنا، فقال الرسول ﷺ: ((ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟!))[1]. هنا لجأ الرسول ﷺ إلى الواقع المعاش الذي يمكن أن يلاحظه الملاحظ ليثبت له صدق قوله ﷺ، ولم يقل له: إن كلامي صحيح لمجرد أني قلته، فأنا رسول اللّه، ولكنه لجأ في إثبات صحته إلى الواقع التاريخي.

وكانت قد لمعت في ذهن الإمام أبي حامد الغزالي هذه العلاقة بوضوح باهر وإن كانت انطفأت حيث لمعت أيضاً حين قال: ((من طلب المعاني من الألفاظ

---

(١) ـ أخرجه الترمذي في العلم، باب: ما جاء في ذهاب العلم، رقم (٢٦٥٥).

ضاع وهلك، وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه، وأما من حرر المعاني أولاً، ثم أتبع الألفاظ المعاني فقد اهتدى)).

ومالك بن نبي يريد أن يحرر المعاني في مشكلة ميلاد المجتمع ودورته، وفي ظني أنه أجرى أدقَّ مقاربة حين قال: ((إن هناك أنواعاً من الجهل لا يمكن الإغضاء عنها، وهناك إضافات لهذا القرن وقيم خاصة به لا تستطيع طبقة مثقفة أن تجهلها دون أن تشنع بنفسها)).

إن هذا القول هو ما يفسر شرارة الوحي التي ذكرها كمركب في معادلته:

الإنسان + تراب + وقت = حضارة

إن الغائب عما يحدث في العالم لا يمكن أن يصنع حضارة، وما جعل مالك بن نبي يكرس نفسه لتحضير المسلمين هو حضوره المتميز في هذا العالم الذي نعيش فيه، فهو بهذا الحضور كان شاهد القرن وحامل رسالته..

عليه رحمة اللّه في الخالدين، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الخامس
اللغة والواقع

تمهيد:

كتب الأخ أحمد المسقطي معقباً على الطبعة الرابعة من كتاب (مذهب ابن آدم الأول) ما يلي:

((مبدأ ابن آدم الأول يمثل صراعاً مستمراً بين الحق والباطل، أو بين الباطل والباطل.

١ ـ ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أنا بِباسِطٍ يَـديَ إِلَيْـكَ لأَقْتُلَـكَ، إِنّـي أَخافُ اللّه رَبَّ الْعالَمينَ﴾ [المائدة ٥/٢٨]، أي أن الرادع هو: الخوف من اللّه.

٢ ـ ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني، ما أنا بِباسِطٍ يَـديَ إِلَيْـكَ لأَقْتُلَـكَ﴾... تهديد.

٤ ـ ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، وما أنت بباسط يدك إليّ لتقتلني... لأن كلينا نخاف من الدمار المتبادل، وهذا هو مذهب العقلانية فالرادع هو الخوف من الدمار.

إن رادع الخوف من اللّه لا يمكن تعويضه أو استبداله برادع الخوف من الدمار لضمان سلام العالم، وهل يكفي هذا الرادع (الخوف من الدمار) وحده لإنهاء الحروب كيما يحل السلام في العالم، أو أن السلام العالمي يكون بالإسلام؟؟..)).

فأجبته معلقاً على ملاحظاته بما يلي:

وصلتني ملاحظات الأخ أحمد المسقطي، فتأملت كلمات الرسالة ملياً، وخطرت لي خواطر عديدة حول هذا الموضوع أوردها فيما يلي:

إن تناول الموضوع، وأسلوب وكيفية التفكير فيه، كل ذلك يرتبط بنوع وأساليب الفكر، أو أساليب الفهم، فكما أن هناك لغة للتفاهم بين الناس، هناك أيضاً لغة فكرية ليست بذات نطق وحروف، ونسميها تجاوزاً (لغةً) لأننا لم نبتكر بعد اسماً خاصاً لهذا الكشف الجديد..

هذه اللغة الفكرية هي مجموعة إدراكات وأحكام وقواعد للوجود، ولكيفية نقل التصورات، ولابد أن نتعاون لفهم هذا الكشف، ولإعطائه اسماً أيضاً..

مراحل التكون الفكري للإنسان:

قلت ولا أزال أقول: هناك ثلاث مراحل يمّر بها التكوين الفكري للإنسان:

١ ـ انتقال الأفكار بواسطة السلوك والتصرف الإنساني.

٢ ـ انتقال أو نقل الأفكار بواسطة اللغة الصوتية (الكلام).

٣ ـ تلقي الأفكار بواسطة الكتاب ـ القراءة.

ـ **المرحلة الأولى:** وتبدأ من لحظة الولادة مباشرة، وذلك بتأثير الجو المحيط والمعاملة.. ومنها مثلاً تعلم الطفل قضاء حاجاته بالبكاء (وقد تحدث المفكر مالك بن نبي عن ذلك). وكذلك تتكون بتأثير سحنة الوجوه بسماتها وتقطيباتها، وبالأصوات الغاضبة، والأصوات الراضية، ذلك بصرف النظر عن اللغة المنطقية التي يتكلم بها الإنسان..

فنحن نعرف أن هذا غاضب وإن كنا لا نعرف اللغة التي يتكلم

بها.. كذلك يتشرب الطفل المواقـف الراضيـة، والغاضبـة، والقيـم، مـن الموقف الذي يحيط به ويؤثر عليه، فالطفل دائم النظر إلى وجوه المحيطـين به، ليمتص أو يتعرف على السلوك المقبول والسلوك المرفوض، وقد يأتي ذلك من خلال أصوات الرضى، والرفـض، بصـرف النظـر عـن دلالات الحـروف أو نوعهـا، يحصـل ذلـك لأن الطفـل يتـأثر بسـحنات الوجـوه المحيطة به.

فإذا ما تصرف الطفل أي تصرف، التفت ونظر وجال ببصـره فيمـن حوله ليرى أثر تصرفه في الآخرين، وهذا يشبه اللغـة السـلوكية، أو لغـة الفهم من خلال التصرف والسـلوك، وليـس مـن خـلال النطـق اللغـوي والحروف..

إذن لابد من إيجاد اسم جديد (لأسلوب التلقي هذا)، اسم غير اللغة، لأن اللغة تحددت بمعناها وأسلوبها.

بعضهم يسميه (نظام الفكر)، أو (الإبستم)، وبعضهم الآخـر يسـميه (اللغونة) وكنت أسميه أحياناً (اللغة التحتية)، أو الأسلوب العميق في نقل المفاهيم والقيم، كالإيحاء مثلاً...

إن المفاهيم التي تنتقل بهذا الأسلوب، تنساب بشكل عفوي غير واعٍ سواء ممن يعطيها أو ممن يتلقاها، وكثيراً مـا يدهـش البعـض مـن سـلوك يسلكه الطفل فينكرون أنهم هم من نقله إلى ذلك الطفل، فلا هذا يشعر بأنه تلقى شيئاً، ولا ذاك يشعر بأنه أعطاه شيئاً.

لابد إذن من وضع هذه المرحلة تحت المجهـر، وتحـت عنـوان حديـث الرسول ﷺ ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانـه،

يصدم الطفل في هذه المرحلة لكنه يتشرب الصدمة ويمتصها في سلوكه، ولا يستطيع التعبير عنها بالكلام، إنه يرى ويفهم ويكتشف أن أسلوباً ما فيه كثير من النفاق، وعدم الصدق، وأحياناً (التناقض) وعدم التوافق. إنه يشعر أننا نقرر أشياء وأموراً بواسطة اللغة ولكننا لا نلتزمها في سلوكنا!!.. هنا يجري تحول جديد، ويعتبر هذا التحول قارةً جديدة من العلم ينبغي اكتشافها.

- **المرحلة الثالثة:** مرحلة التعلم من الكتاب بواسطة القراءة.. ولعل ما يتعلمه الإنسان بواسطة القراءة له صفة سطحية نسبياً، فمرحلة التعليم الأولى تشكل طبعة عميقة وراسخة، عفوية وكتيمة، وتأتي المرحلة الثانية دونها في العمق، في حين تبقى المرحلة الثالثة عائمة.. وهنا لابد من كشف دقيق موسع لهذه المراحل، لنستطيع الدخول إلى التمييز بين اللغة الصامتة، واللغة الصائتة، واللغة المرسومة على الورق بالحروف!!

إن مفاهيم المرحلة الأولى تسيطر على مفاهيم المرحلتين التاليتين، ومن يعرف قراءة نظام تكونه، وآليته وأسلوب ذلك التكون، وكيفية اشتغاله بوعي وإدراك؛ يتمكن من حل كثير من المشكلات التي تصادفه في المرحلتين التاليتين.

قد اهتمت الدراسات بالمرحلتين الأخيرتين؛ فراحت تفرّق بين الأمي المتكلم، أي الذي لا يقرأ، وبين المتعلم الذي يستطيع القراءة، فالأول مُهان، خجول، محتقر، ولكنّ سلطانه أعمق بكثير، والثاني متميز محترم، هذا الاحترام الكبير بدأ يُسحب منه بعد أن تبين أنه احترام مبالغ فيه، ووهم مسيطر على الناس.

لكنني لم أجد بعد من يعطي المرحلة الأولى العناية التي تستحقها،

يصدم الطفل في هذه المرحلة لكنه يتشرب الصدمة ويمتصها في سلوكه، ولا يستطيع التعبير عنها بالكلام، إنه يرى ويفهم ويكتشف أن أسلوباً ما فيه كثير من النفاق، وعدم الصدق، وأحياناً (التناقض) وعدم التوافق. إنه يشعر أننا نقرر أشياء وأموراً بواسطة اللغة ولكننا لا نلتزمها في سلوكنا!!.. هنا يجري تحول جديد، ويعتبر هذا التحول قارةً جديدة من العلم ينبغي اكتشافها.

- **المرحلة الثالثة:** مرحلة التعلم من الكتاب بواسطة القراءة.. ولعل ما يتعلمه الإنسان بواسطة القراءة له صفة سطحية نسبياً، فمرحلة التعليم الأولى تشكل طبعة عميقة وراسخة، عفوية وكتيمة، وتأتي المرحلة الثانية دونها في العمق، في حين تبقى المرحلة الثالثة عائمة.. وهنا لابد من كشف دقيق موسع لهذه المراحل، لنستطيع الدخول إلى التمييز بين اللغة الصامتة، واللغة الصائتة، واللغة المرسومة على الورق بالحروف!!

إن مفاهيم المرحلة الأولى تسيطر على مفاهيم المرحلتين التاليتين، ومن يعرف قراءة نظام تكونه، وآليته وأسلوب ذلك التكون، وكيفية اشتغاله بوعي وإدراك؛ يتمكن من حل كثير من المشكلات التي تصادفه في المرحلتين التاليتين.

قد اهتمت الدراسات بالمرحلتين الأخيرتين؛ فراحت تفرّق بين الأمي المتكلم، أي الذي لا يقرأ، وبين المتعلم الذي يستطيع القراءة، فالأول مُهان، خجول، محتقر، ولكنّ سلطانه أعمق بكثير، والثاني متميز محترم، هذا الاحترام الكبير بدأ يُسحب منه بعد أن تبين أنه احترام مبالغ فيه، ووهم مسيطر على الناس.

لكنني لم أجد بعد من يعطي المرحلة الأولى العناية التي تستحقها،

ويهتم بها الاهتمام الذي يتناسب وتأثيرها.

وقد حاول (ميشيل فوكو) أن يبحث في ذلك ولكن ليس من خلال خصوصية هذه المرحلة في تكون المفاهيم لدى الفرد، بل بحثه في نظام الفكر الذي يسيطر على بيئة ما، بصرف النظر عن اللغة التي نتحدث بها.

وعلى هذا نجد أن العالم الإسلامي، على اختلاف لغاته، يعيش نظاماً فكرياً واحداً، وهو نظام محميٌّ ومحروس ومحصن، يدافع عنه المسلمون بإحساس مرهف ودقيق، وبحساسية مفرطة، كمن يشعر بخطر خروج القطار عن سكته فيما إذا حاول تغيير نظام تفكيره، لذلك تجد الجميع في توافق تام على حراسة شجرة الحياة الثقافية...

ضرورة البحث في الأرض لفهم لغة السماء:

إنني حتى الآن لم أدخل في مناقشة ملاحظات (مشكلة العنف) والسلام العالمي، مشكلة الإنسان وابن آدم، والعنف، فالمشكلة ليست في العنف أو في ابن آدم!.. لكنها في أسلوب الفهم (نظام التفكير)، كيف نفهم؟.. كيف نعرف الصحيح من الخطأ؟.. كيف نتلقى عن اللّه عز وجل؟. ما تصورنا لله سبحانه؟

ما المشكلة؟. كيف نعرف الصواب، ونعرف أن المشكلة قد تم حلّها؟ ثم كيف يتم تلقينا عن اللّه عز وجل، حسب المرحلة الأولى لتكوّن المفاهيم أم حسب المرحلة الثانية أو الثالثة؟..

إن هذه التساؤلات وهذه الأفكار والملاحظات التي أكتبها موجزة جداً، وربما مبتورة أيضاً، وتفتقر إلى العناية والتأمل، والدقة..

بالأمس زارني عدد من ذوي الشأن والمكانة الاجتماعية، ونظراً لتمتعهم بذكاء معروف ومشهود، كانوا يتحدثون باعتداد... وراح أحدهم يتكلم عن

النفس والروح وينقل عن اللّه عز وجل وعن الرسول ﷺ.. فيقول: قال اللّه وقال رسوله، حتى قلت له: دعنا من قعقعة الكلمات التي لم تعد ترهبني، دعنا من الأقوال عن النفس والروح وعن.. وعن..

نريد أن نعرف كيف نفهم؟. كيف يحصل الفهم؟.. كيف نتأكد أن ما فهمناه قد فهمناه؟؟. كيف تنتقل إلينا الأفكار؟.

لندع الحديث عن السماء.. ولنتحدث عن الأرض.. لنبحث عن الإنسان والفطرة والبيئة. كيف تصوغ البيئة هذا المولود؟.

إن الذي يحدث، يحدث أمامنا، وبتأثير قوى تحيط بنا، بل تصدر عنّا، بشكل ليس غيبياً، ولا خارقاً، بل بشكل يخضع للفهم، والسيطرة عليه.

حين نقول: قال اللّه وقال رسوله نعرف أن هذا القول من اللّه عز وجل ومن رسوله ﷺ لا يصلنا إلا إذا مرّ بقنوات وأجهزة من صنع البشر، وعبر المراحل الثلاث التي ذكرتها في البداية..

لقد (استخدم) اللّه سبحانه للتكلم إلينا اللغة التي صنعها الناس، الناس العاديّون ﴿وما أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم ١٤/٤] لهذا ترانا نتلقى ذلك ونتداوله بواسطة الأساليب الثلاثة التي يمر بها كل الناس..

فمفاهيم الكلام، كلام الناس، أو كلام اللّه سبحانه أو كلام الرسول عليه الصلاة والسلام لا تصل إلى فكرنا إلا بواسطة هذه المراحل الثلاث، إذ لا يمكن لنا أن نتصل مباشرة (بأفكار) اللّه عز وجل أو بكلامه أو بكتابه وكذلك بالنسبة لرسوله الكريم.. ولكننا نتلقى عنهم بواسطة هذه المراحل..

نحن الآن ليس أمامنا إلا كتاب بين دفتين، لا يمكن لنا أن نفهمه إلا بواسطة اللغة، بواسطة الكلام المحكي، والمكتوب... والمسلمون عموماً يظنون وبكل

سذاجة أنهم يدركون المعاني، أو يقدرون على الاتصال بهذه المعاني التي أرادهـا اللّه بواسطة اللغة ودون الرجوع إلى الواقع الذي تتحدث عنه!.

فهناك مشكلة اللغة، ومشكلة الدلالـة، والرمـز، هـذه القضيـة يجـب بحثهـا لا كشيء سحري خارق، أو كموضوع غيـبي، وإنما كشـيء تقـع جزئياتـه كلهـا تحت سمعنا، وبصرنا، وملاحظاتنا، فلا شيء منها يخفـى علـى أيٍّ مـن النـاس إذا أراد أن يتأمل الواقع الذي يحدث أمامه...

دلالة الكلمة ودلالة الواقع:

من هنا كان إلحاح القرآن الكريم على الرجوع إلى الواقع، وتلمس الفهم من خلاله، وهذا الأمر الذي أُلح عليه.. لقد ركز عليه القرآن الكريم، وكرر الطلـب والتأكيد على مدِّ أشرعة السمع والبصر، كما أكد علـى تكـرار النظـر في آيـات الواقع.

ويبدو أن ما ألح عليه القرآن الكريم قد فرّغه المسـلمون مـن معنـاه، بـل لقـد صاروا ينظرون إلى الواقع بالريبة والتردد، ولا يثقون بـه، في حـين أن الواقـع هـو رصيد الكتاب وهو الذي جعل الكتاب مبيناً، كريماً وعظيماً، ذلك أنه أيد الواقع ودعا لإعادة النظر إليه، وقال إن اليوم الآخر، والمعاد، والحق... كـل ذلـك حـقٌ مثـل مـا أنكـم تنطقـون: ﴿فَوَرَبِّ السَّماواتِ والأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَما أَنَّكُمْ تَنْطِقونَ﴾ [الذاريات ٥١/٢٣].

نحن الذين ننطق.. نحن من يملـك الحَنْجَـرة واللسـان والشـفتين، نُخـرج منهـا الهواء برنين معين، وطريقة معينة ثم نربط هذا الرنـين عـبر الذبذبـات والموجـات الصوتية، بمعنى نعطيه للصوت، فالنطق قابل للارتباط بهذا المعنى أو بذاك..

لذلك وجدت لغات لا حصر لها ﴿واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ..﴾ [الروم ٣٠/٢٢]، ولو كان بين الكلمة والمعنى ارتباط غير ربطنا نحن ـ الربط الاعتباطي ـ لو كان هناك ربط وجودي لما كان في العالم إلا لغة واحدة بدلالات واحدة.. ولو كان ذلك لما قال اللّه سبحانه: ﴿وما أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾.. هذه الموضوعات لم تلق البحث الكافي بعد..

إن الإنسان هو الذي يكتشف المعاني.. وكما ذكرت سابقاً إن اللغة الفكرية تختلف عن اللغة اللسانية، وأقصد تلك اللغة التي توصل المفاهيم دون كلام والتي لم نجد لها اسماً بعد، ولو أننا تداولنا هذا الموضوع باستمرار لتولد الاسم بالضرورة، دون أن نشعر.

عندما يغدو الموضوع واضحاً يتولد الاسم الذي نراه نحن، لا اللّه سبحانه، إنه جل جلاله لا يسميه، واللّه عز وجل استخدم هذه المصطلحات التي وضعها الناس حينما أرسل الرسل.. بألسنة أقوامهم.

والظاهرة التي لا نقدر على تحليلها هي ظاهرة دلالة الكلمة، ودلالة الواقع، إننا نظن أن الكلمة أدل على الواقع من نفسه!!. هذه بديهية، ولكن الوهم الذي نقع فيه يشبه الوهم الذي وقعنا به حين ظننا أن الشمس تدور حول الأرض، وأصبحنا جميعنا نقرّ بأن الناس جميعاً كانوا يقعون في وهمٍ جليٍّ، وكم كان من الصعب كشف الحقيقة، حقيقة هذا الواقع..

ينبغي أن نتعمق في فهم هذه الظاهرة.. إذ لم تكن العودة إلى النصوص لتحل المشكلة لو اكتفى الناس بالكلام أو اللغة، ولو اقتصروا على فهم هذه الحقيقة من النص أو من اللغة، لو حصل ذلك لاستمر القتال، ولوجد من يؤول النصوص، فالنصوص قابلة للتأويل، والبشر بإمكانهم أن يقوموا بذلك، لأننا نحن الذين نصنع المعنى ونحن الذين نصنع العلاقة بين الكلمة ومدلولها، بين اللفظة ومعناها،

وما نصنعه نحن نستمر بصنعه وأحياناً على أساس الوهم والخيـال، وعلـى أسـاس التصور المنفصل عن الواقع، الذي يمكن أن يغوص أو يطير ويحلق!!. في حـين أن الواقع لا قدرة له على الطيران، إنه يلتزم بحدوده، فهو مقيد يتحرك ببطء.. ومـع بطئه يحقق قطع مسافةٍ ما، لكن الخيال مع تحليقـه وطيرانـه لا يقطـع أي مسـافة، ولا يبارح مكانه!!.. فكرة أيضاً يجب الإكثار من تأملها..

كم من الأوهام نحملها مع استعدادنا للموت من أجلها ودفاعاً عنهـا، أو مـع استعدادنا لأن نميت الآخرين من أجلها!..

الوهم الصادق والصدق الواهم:

إن في حياتنا أوهاماً صادقة مثل ظاهرة الشمس ودورانهـا، وصدقـاً متوهَّمـاً، وبعبارة أخرى ينبغي أن تكون لنا القدرة على رؤية جانبين للأمر لا جانب واحد كالوهم الصادق.. والصدق الواهم.. ولكن مجرد إيجاد مثل للظاهرة الثانية يحمـل صعوبة أيضاً.. ولربما يوضح هذا المثال بعض الأمور.

الناس يعتقدون أنهم مجبورون على طاعة الدكتاتوريين، وعلى عدم قول الحـق أمامهم ظناً منهم أن قول الحق يحمل لهم الهلاك المحقق.. هذا وهم صـادق، بينمـا هنالك أمر حقيقي وهو: القضاء بقول الحق على ما يعتقدون أنه مشـكلة.. هـذا صدق ينظرون إليه بوهم.. والاعتقاد الأول وهم ينظرون إليه بصدق...

كم من أشياء حقيقية نفهمها فهماً خاطئاً، وكـم مـن أشـياء خاطئـة نفهمهـا فهماً راسخاً؟!!

وبين أن نظن الكذب حقيقة، والحقيقة كذبـاً، تكمـن حالـة أخـرى هـي: أن نظن الصحيح صحيحاً، وأن نرى الخطأ خطأً.. أرنا الحق حقاً... والباطل باطلاً.

أما سبيل التخلّص من الفهم الخاطئ والعـودة إلى الصـواب فهـو الرجـوع إلى

الظاهرة وتأملها والنظر إليها وإلى عواقبها..وحين نقصي ونستبعد النظر إلى الظاهرة نفسها وإلى عواقبها، فإنه لا يمكن أن نجد الحلول بواسطة الصور الذهنية، لأن هذه الصور منفصلة عن الواقع، ويمكن أن تكون أوهاماً لا أكثر..

لابد إذن من العودة إلى الواقع لأنه أدلُّ على نفسه من الصورة التي نتخيلها عنه، كما أنه أدلّ على نفسه من الكلمة التي نطلقها على تصورنا الذهني له، هذه الحقيقة المستبعدة هي أم المشكلات الإنسانية..

وزيادة في إيضاح ما سبق سأورد مثالاً عملياً يجري معنا في حياتنا اليومية أو الفصلية... من خلال تربية النحل.

حين نكشف عن الخلايا (نتفحصها) قد نجد ملاحظات معينة تتعلق ببعضها، فنضع حجراً على الخلية الضعيفة، وبعد حين يصبح الحجر رمزاً يدل على معنى ما، فإذا رأينا حجراً على خلية ندرك حسب مصطلحنا الذي كان في تصورنا أثناء وضع ذلك الحجر أن الخلية ضعيفة، ولكن يحدث في مرحلة أخرى عند الكشف عن تلك الخلايا أن نضع حجراً لنشير إلى الخلية القوية، لا الضعيفة وذلك بغية إضافة إطارات جديدة للشغل، فنعرف أن الحجر يعني ضرورة إضافة إطارات جديدة، وقد يحدث أنه نضع حجراً على الخلية المريضة بغية معالجتها، فقد نضع الحجر في الوسط ليدل على المرض أو في الأمام ليدل على الضعف أو في المؤخرة ليدل على القوة.

وأحياناً نرى الحجر فلا نعرف على أي أمر يدل.. هل يدل على ضعف أو مرض أو قوة؟ وحينما نقع في الحيرة من دلالة هذا الحجر نلغي دلالاته ونعود إلى التعامل مع الخلية من جديد (بكشف مباشر).

هذه الظاهرة الطبيعية تساعدنا على فهم المشكلة العويصة، فالحجر نفسه لم يعد مصدر المعرفة، ومصدر العلم بالشيء، وإنما هو رمز عارض قابل لأن يعطي

معاني كثيرة، وللخروج من الحيرة نعود إلى الواقع للتعامل معه برموز جديدة.

فالرموز إذن ليست هي المرجع الحقيقي، إنها مرجع ثانوي عارض لفهم الحقيقة والتعامل معها، هذه النقطة التي تثير المشكلات والأزمات في العالم الإسلامي، وفي العالم الإنساني عموماً تبدو نقطة بخفيّة، وجليةً بآن واحد.

لكنّ اللّه عز وجل تعامل معنا بالرموز، وبحقائق الواقع، وأمرنا بأن نرجع دائماً إلى الواقع، فننظر فيه، ونتأمله، وما الرموز إلا أشكال مساعدة مرحلية، ومؤقتة يمكن أن تختلف بحسب الزمان، والمكان، أما السنن الواقعية فلا تتغير، ومهما رجعنا إليها نجدْها ثابتة: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّه تَبْدِيلاً، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّه تَحْوِيلاً﴾ [فاطر ٣٥/٤٣].

ما الرموز إلا أسماء سميناها ما أنزل اللّه بها من سلطان، السلطان في القانون الثابت والسنة الثابتة فحسب. فالرمز إذن أداة تساعد على الفهم المؤقت، أما الواقع فهو أبدي وذلك من سنة الذرة.. إلى سنة المجرة.

مرجعية الواقع وختم النبوة:

من هنا لما جاء الإسلام بمبدأ الاهتمام بالوقائع، والتفاهم مع اللّه سبحانه بواسطة سننه، توقفت النبوة التي كانت مرحلة ثم انتهت، وصار خاتم النبيين، يصرّ ـ بواسطة آيات القرآن الموحاة إليه ـ على النظر في الكون، وتأمل الخلق، والاعتبار بسنن الماضين، كل ذلك يشكل أدلة واضحة على أن التعامل مع اللّه سبحانه يكون وفق سننه التي لا يمكن أن تتغير مع أهوائنا: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون ٢٣/٧١].

لقد انتبه محمد إقبال إلى ذلك، خاصة في بحث ختم النبوة، وتساءل: لماذا ختمت النبوة، ولم يعد يأتي نبي، ولا كتاب؟ لأن آخر الرسالات والكتاب

والنبي دلّنا على الكلام الذي ليس كـلام حـروف، وإنما حقـائق ملموسـة، أصبح الواقع مصدر الفهم.

كنـت أقـرأ مقـالاً في مجلـة الثقافـة الإسـلامية الـتي تصدرهـا المستشـارية الثقافية للجمهوريـة الإسـلامية الإيرانيـة كتبـه: آيـة اللـّه عبـد اللـّه جـواد الآملي، وقد وضع في أوله عنواناً جانبياً يقول: ما المقصود بالكتاب؟ وكان الكتاب يبحث في تفسير سورة الرعد: ﴿المر تِلْـكَ آيـاتُ الْكِتـابِ، والَّـذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ...﴾ [الرعد ١٣/١].

قال الكاتب: في الآية الأولى ذكر اللّه تعالى أن الكتاب (التكويني) وهو الكون والكتاب (التدويني) وهو القـرآن الكريـم كليهمـا حـق.. ثـم وضـع عنواناً آخر: الكون علـم متجسـد... وقـال تحتـه: إن هـذا النظـام الكونـي مهيمن على كل البشر، والعلم يدرسه.. ذلك أن الكون علم متجسد..

حين نرى مكتبة تحوي عدة آلاف من الكتب.. نقول: إنهـا علـوم، لأن ما كتب فيها هو من العلم، والذيـن قـاموا بتأليفهـا هـم مـن العلمـاء، كـل أولئك تلامذة هذا النظام، وما دونوه هـو جـزء يسـير ممـا عرفـوه مـن هـذا الوجود.

فكيف يكون المدوِّنـون علمـاء، وتدوينهـم علمـاً، ولا يكـون مـتن هـذا النظام علماً؟ أو لا يكون نظاماً قائماً على العلم وقـد أُخـذت منـه معـارف العلماء ومضامين الكتب العلمية؟.. إن الكون علم متجسد.

معرفة التاريخ وفهم الكتاب:

وما أود قوله هو: أنه لا يمكننا أن نفهم القرآن الكريم ونحن نتجاهل ما ألح عليه من معرفة بالتاريخ البشري، وأخبار الأمم، ومن غير أن نكون شهداء على الناس في هذا القسم الضخم الذي أهمله المسلمون، وكأنه لا قيمة له على الإطلاق، بل إن أحداً لا يحاول أن يتخصص في ذلك!!

إننا بهذا نلغي دلالة الكتاب إلغاء تاماً فيصبح وكأنه غير موجود، لأن الذي ينبّه المسلمين إلى ما يضمه الكتاب من اهتمام بالتاريخ وحوادثه وبأحوال البشر ليس الكتاب ذاته، ليس القرآن الكريم، بل حوادث الكون والتاريخ نفسه، حوادث الكون هي التي ستعلمنا ذلك، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ سيروا في الأَرْضِ فانْظُروا كَيْفَ بَدأَ الْخَلقَ...﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠]، هذه الآية رغم أنها أمام المسلمين منذ نزولها فإنهم لم يستفيدوا منها، بل حتى الذين عرفوا كيف بدأ الخلق لم ينطلقوا في بحثهم من الآية، وإنما انطلقوا في بحثهم من ملاحظة الكون فحسب.

فما دلَّ على نفسه وعلى ما فيه هو الكون ذاته وليس الكتاب، والأعمق في الدلالة أن المسلمين يرفضون معنى هذه الآية، في حين صار محتواها هو المرجع الأساسي لفهم الأمور.

مرة أخرى أقول إن الحدث أو الشيء أدل على ذاته من كل وصف، فعند الاختلاف يكون المرجع ليس الكتب وإنما العودة إلى الحدث أو إلى الشيء ذاته.

مثلاً إن الصخرة أدل على نفسها من كل كلام يقال عنها، حتى ولو كان هذا الكلام كلام اللّه عز وجل، لأنه سبحانه استخدم كلام البشر في الحديث عنها، لكنه حين خلق هذه الصخرة لم يحتج إلى البشر، فالصخرة أدل على صنع اللّه من كل كلام يقال عنها، وعند الاختلاف بشأنها يصبح المرجع الأصدق

هو البحث عن الصخرة ذاتها، وعندما يأتي علم جديد عن هذه الصخـرة، علـم أعمق، فسيأتي من خلال التعامل مع هذه الصخرة ذاتها.

هذه بدهية لكنها غائبة عن أذهان المسلمين خاصـة والبشـر عامـة، لهـذا نجـد القـرآن الكريـم يلـح غلـى الرجـوع إلى الكـون المـادي، والعـودة إلى الواقـع الاجتماعي لفهم النظام والسنن.. ليقول لنا القرآن الكريـم: إن الواقـع أدل علـى ذاته من (كلامي - كلام القـرآن)، ويقـول لنـا كذلـك: سـتفهمون في المسـتقبل معنى هذا الكلام لأن الواقع هو الذي سيكشف معناه.

صنع السلام بمادئ الكتاب أم بحقائق الواقع؟

حين يسأل الأخ الكريم: ((هل رادع الخوف من الدمار وحده كافٍ لإنهـاء الحروب، وإحلال السلام في العالم، أم السلام بالإسلام (السلام الحقيقي)؟؟)).

رادع الخوف من اللّه لم يصنع السلام بين المسيحين خلال ألفي عام.

ورادع الخوف من اللّه لم يصنع السلام بين المسلمين خـلال ألـف وأربعمئـة عام بدءاً من معركة صفين، وانتهاء بحـرب الخليـج.. وحـروب الخليـج الأخـرى كذلك.

لكن الرادع النووي صنع السلام بين الذين دخلوا هذا العالم..

هذا ليس عيباً على الإسلام. ولا هو نقـص فيـه، إذ لابـد مـن إقامـة الدليـل، والدليل من واقع الأرض، الرادع النووي صنع السلام والرادع الإلهـي والديـني – الأخروي لم يصنع السلام عفوياً.

لماذا لا نقول: إن الرادع النووي هو رادع إلهي أيضاً، لأنه بسننه تعـالى؟ هـذا ما يقول اللّه تعالى عنه للبشر: إذا كنتم لا تريدون أن تصنعوا السلام بقولي لكم ﴿ادْخُلوا في السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقـرة ٢/٢٠٨]، فسـأرغمكم علـى السـلام بآيـات الآفاق. هذا ما تعنيه: ﴿انظروا﴾، ﴿وانتظروا﴾.

إن لم تؤمنوا بواسطة الموعظة، فستؤمنون بواسطة عواقب الأمور رغماً عنكم: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس ٨٠/١٧]، إنه اقتصادي وطمّاع، إن ظن أنه سينجو من العقوبة، فسيغامر،ويدخل المخاطر، وإن تأكد من عدم نجاته فسيعدّ قبل إقدامه إلى العشرة بل المائة أو الألف.

يدخل الإنسان الحرب طمعاً في النصر، ولكن حين يتأكد من الهزيمة، أو من الموت، يتردد في الإقدام عليها ويصبح كمن يقوم على الانتحار، ولا شك أن عدد المنتحرين أقل بكثير من عدد الذين يموتون موتاً طبيعياً.

هذه الأمور يمكن دراستها من خلال الواقع الإنساني وطبيعته وتكوينه، ودراسة خلق اللّه، لا تناقض دراسة الكتاب، لكن البدء في الدراسة من كتاب اللّه دون الاعتراف بالواقع الذي سيشهد في النهاية على الكتاب وصدقه لا يحل المشكلة بل يضاعفها.

إنه أسلوب غير واقعي، في حين أن الواقع الذي يرغم الجميع هو الذي يضغط في النهاية لأن نغيرّ فهمنا عن القرآن.

فمثلاً القرآن الكريم يقول عن القلوب إنها هي التي تفقه (تعي وتفهم) أي أن القلب هو عضو الفهم، إلا أن الواقع والتعامل معه كشف أن القلب البشري ما هو إلا مضخة للدم، ولا علاقة له بالفهم، إنه مضخة تعمل ببطء أو بسرعة وفق الأوامر الصادرة إليها، وليس القلب هو الذي يصدر الأوامر.

إذن الواقع كشف فيما إذا كان هذا القول حقيقة أم مجازاً.. أو خيالاً. لأن الإنسان بإحساسه يشعر أن قلبه هو الذي يخاف ويطمئن، استناداً إلى شعور عام سطحي، وليس على أساس البحث العلمي الدقيق (البحث حسب الواقع)، ومع ذلك فإن الإنسان سيرجع إلى القلب وأنه هو الذي يفهم إذا ما ثبت هذا الأمر بالدليل الخارجي لا بمجرد القول.

الواقع يغير فهمنا للكتاب:

حدثني أحد الأصدقاء أن بعض الذين تشكّكوا في وصول الإنسان إلى القمر اجتمعوا ليتخذوا قراراً حول ذلك، فقال أحدهم: إذا ثبت أنه وصل إلى القمر فماذا سنقول؟؟.. سنقول إن فهمنا للقرآن الكريم كان خاطئاً. هذه الحادثة تدل على أن هذا التسلسل يحدث دائماً على مرّ التاريخ، ونحن الآن كثيراً ما نصاب بصدمة تجاه موضوع جديد، وسبب الصدمة صدق هذا الموضوع الجديد وواقعيته، إذ الناس ينكرونه في البداية، وبعد أن يشهد الواقع يضطرون إلى التكيف معه.

كم تحدثت مراراً حول هذا الموضوع دون جدوى، كمن يخضّ الماء، وتبقى جدواه قليلة في المستقبل المنظور. الغريب أن هناك مشكلة إنسانية هي أن الأمر الذي يسلم به الأكثرية يسهل قبوله، لا لأنه هو الصواب بل لأن قبوله لا يحدث معارضة ولا حرجاً، وما يُجمع الناس على إنكاره يكاد الإنسان يفقد القدرة على إدراكه.

لكن معرفة التاريخ، ودراسة هذه المنعطفات التي مرّ بها الناس في تاريخهم، وكيف كانوا يرفضون أموراً ثم يقرون بها، وكذلك كيف كانوا يقرّون بأمور ثم صاروا يرفضونها، إن هذه المعرفة التاريخية الإنسانية تجعل الإنسان يتشكك ويسأل: هل ما نسلم به الآن سيتغيّر؟! هل هذه الأشياء ليست خالدة ولا أبدية؟!

اللّه وحده هو الأبدي الذي ليس كمثله شيء، ولكن المخلوقات كلها متغيرة ولو تيسّر لإنسان أن يقوم بمراقبة فكرية لوضع الكرة الأرضية ونشوء الحياة فيها، وأنواع الحيوانات التي عاشت عليها، وكيف كانت الحياة كلها في الما ثم صارت على اليابسة، ثم وجد الإنسان، لتساءل: لماذا لا يخطر في بالنا أن

هذا الخلق ما يزال مستمراً، وأنه لم يتوقف، وأن اللّه تعالى لا يزال يخلق، ويزيد في الخلق ما يشاء.. وأن هناك نشأة أخرى؟!!

ميزة الإنسان أنه يستفيد من التاريخ، فمعرفة كيف بدأ الخلق هي التي تدل على استمرار الخلق، والزيادة فيه.

ونحن البشر لم يمر على إدراكنا لتاريخ الأرض أكثر من مائتي عام.

وإن المائتي عام بالنسبة لملايين السنوات التي عاشتها الأرض دون كائنات عاقلة ليست إلا فترة قصيرة جداً.

إن التاريخ سيضطر المسلمين إلى تغيير فهمهم للقرآن، وها هم اليوم يقفون موقفاً سلبياً من التاريخ العام، ولا يعترفون به، بل يعترفون بتاريخهم الخاص فقط، وحتى هذا التاريخ الإسلامي لا يأخذ حجمه الحقيقي، لا سلباً ولا إيجاباً، إلا إذا نظر إليه في سياق التاريخ العام للبشرية.

ببطء شديد نتعلم، وبمعاناة أشد يتعلم بعضنا من بعض، وبالمعاناة نتمكن من إبصار بصيص من النور الخافت.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل السادس

أمراض الفكر في العالم الإسلامي(*)

استنزاف الذكاء الإسلامي:

طالما كان يقلقني أن شباب العالم الإسلامي الأذكياء المتفوقين في الدراسة كانوا يتجهون إلى دراسة الطب الجسدي في كليات الطب، فكانت كليات الطب، وكذلك كليات شبيهة بها مثل الهندسة، تقوم بعمليات استنزاف للذكاء الإسلامي، وكان الذكاء الإسلامي لا يتوجه للدراسة الإنسانية النفسية الاجتماعية الفلسفية التاريخية إلا كالمغلوب على أمره، ومن بعض متوسطي الذكاء أو مَنْ دونهم، وقد جعلنا هذا الوضع نرى أساتذة كباراً في الطب الجسدي من المسلمين في أرفع المعاهد الطبية في جميع أنحاء العالم، بينما لا نلقى من هو مبرّز في العلوم الإنسانية إلا النادر من الطلاب، فضلاً عن أن نرى فيها أساتذةً مبرّزين كباراً.

ولا أعزو هذا النجاح والتقدم في ذاك الجانب، والتأخر والتخلف في الجانب الآخر إلى أسباب مادية أو مركز اجتماعي توفره دراسة الطب الجسدي، وإنما أعزوه إلى عدم التفطن إلى أن العلوم الإنسانية هي التي يمكنها أن تساهم في حل المشكلة الإسلامية أو الإنسانية، وذلك حتى لا أقول: إن شبابنا لا يحملون همَّ

(*) - كتب هذا البحث في كانون الثاني ١٩٩٣م، وأرسل إلى المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية.

تخلف المسلمين، وإنهم غير مستعدين للتضحية بأنفسهم وأموالهم في سبيل إعـزاز أمتهم، فقد أثبتوا ذلك، وهذا طرف من الموضوع وهو بحاجة إلى دراسة.

وكنت دائماً أحاول تقريب مشكلة تخلف المسلمين بمثال الأمراض الجسـدية؛ وكيف كان الناس يموتون بالأوبئة المختلفة التي كانت تأتي وتحصدهـم، دون أن يعرفوا كيف جاءت، ولا كيف رحلت، فلما عرفوا قانون صحة الجسد، وعرفوا أسباب الأمراض الجسدية، وكشفوا الجراثيم والتخدير والمضادات الحيوية، تعافى النـاس مـن الأوبئـة والميتـات الجماعيـة. وإنـي أحـس بـأن آلام المجتمعـات مـن الكراهية، والحروب الأهلية، والأحقاد، والارتياب، إنما هي أمراض اجتماعية لهـا أسبابها التي تشبه أسباب الأمراض الجسدية.

والقرآن الكريم ذكر المرض الجسدي في بعض آياته، ولكن جلَّ اهتمامه كان منصبّاً على المرض الفكري النفسي، و لم يُعنى بالمرض العضوي للقلب وبما يصيبه منه، بل كان يقصد بمرض القلب: الجهل، والحيرة، والحقد، والتفسيرات الخاطئـة للمشكلات البشرية. على هذا الأساس كان اهتمام القـرآن بـالأمراض الفكريـة، وقد أعطاها الأولوية والتأكيد والتكرار والإلحاح للتأمل فيها وتدبرها.

إنني على جانب كبـير مـن الثقـة بـأن الجهـود إن بذلـت وتوجهـت إلى هـذه الدراسات؛ فستكشف عوالم من القوانـين والسـنن الـتي يمكـن تسـخيرها لصـالح الصحة النفسية الفكرية، كما كشف الناس القوانين والسنن التي أمكـن التعـرف عليها وتسخيرها لصالح صحة الجسد، الذي تتطور المعارف فيه وتكبر يومـاً بعـد يوم.

إن البواعث على التوجه إلى صحة الجسـد هـي أكثر انتشـاراً ووضوحـاً مـن البواعـث الـتي تدفـع إلى الشـعور والإحسـاس بجـدوى وضـرورة طلـب الصحـة الفكرية، وليس ذلك ناشئاً عن شيء يرجع إلى طبيعة الإنسان الجسدية والوراثيـة والفطرية، بل عن مقدار تطـور البيئـة، ونـوع التربيـة، والمنـاخ الفكـري الـذي يعيـش

الإنسان فيه، إلا أن هذا المناخ يمكن التحكم بـه، وممارسـة التعديل عليـه، وهـذا هـو جوهر المشكلة.

مرض العالم الإسلامي:

هل يمكن تصور أن الحضارة الإسلامية المعاصرة حضارة مريضـة، وأن تصـور المسـلمين للأخـلاق والسـلوك البشـري يحيطـه الغمـوض والتصــورات الخرافيـة اللاسـننية، والخوارقيـة، والغيبيـة؟! وليـس هـذا فقـط؛ بـل إن محاولـة فهـم هــذا الموضوع تعتبر خطيئة كبرى، وطريق الفهم محمي بلهيب سيف متقلب لحراسة شجرة المعرفة؟!

إن بحث مثل هذه المواضيع الشائكة والمزمنة التي كانت مستبعدة دائماً خـلال التاريخ، والتي لا يمكن الحديث عنها في أول الأمر بشكل منهجـيّ ومرتـب، لأن الإمساك بها جملةً واحدةً أمر غير ممكـن، وهـو يحتـاج إلى نظـام فكـري جديـد، وانتقال إلى عالم آخـر تحكمـه قوانـين مغـايرة لمـا اعتدنـا عليـه، بحـث مثـل هـذه المواضيع يتطلب قطيعة معرفية كاملة مع نظام الفكـر المعـاش، والقيـام بمثـل هـذا العمل مهما بدا منسجماً عنـد الـذي يعرضـه، فـإن المعروض عليـه لا يُدخلـه في ميزان الجوهراتي ولا في ميزان توزن به الخضار بالجملة؛ بل يدخله تحت موضوع ﴿ما سَمِعْنا بِهَذا في آبائِنا الأَوَّلِينَ﴾ [القصص ٢٨/٣٦]. لهذا سنظل نطرح هـذا البحث من غير ملل ولا كلل مهما كان مرفوضاً ودون أن نصاب بالخيبــة، ولنـا في تاريخ البشرية مددٌ وعون، وأقرب مثل على ذلك أن غاليليو بُرِّئ مـن تهمـة الهرطقة مؤخراً بعد مرور نحو أربعة قرون على طرحـه الـذي رفـض فيـه التصـور الفلكي الذي كان ينطلق من مركزية الأرض للكـون، ورأى أن المركزيـة نسـبية تعود للراصد. فهـل يفيدنـا هـذا المثـل في نسـبية الرؤيـة المركزيـة الحضاريـة الـتي يعيشها البشر جميعاً؟؟.

هذا جانب من المشكلة التي لا يمكن عرضهـا في أول الأمـر بشـكل منهجـيّ،

وإنما بشكل أفكار غير مرتبة، تؤول بعد عرض عدة أفكـار إلى كشـف علاقـات ورؤى جديدة.

كيف سأدخل في الموضوع؟ ومن أي طرف سأبدأ؟ هل أنا بحاجـة إلى إثبـات أن العالم الإسلامي مريض؟ وهل يمكن أن أعود إلى الوراء لأعلـم متـى بـدأ هـذا المرض، وكم عمره، ومتى كان ميلاده، ومـا المضاعفـات الـتي حدثـت لـه؟ هـل بالإمكان كشف ذلك؟ هـل بـدأ هـذا المـرض في العـالم الإسـلامي حـين سميـت الخلافة العثمانية في القرون الأخيرة بالرجل المريض؟؟.

الكلمة والمعنى:

(في البدء كانت الكلمة)... هكذا ابتدأ يوحنا إنجيله، ﴿إِنَّما الْمَسِـيحُ عيسـى ابْنُ مَرْيَمَ رَسـولُ اللـَّه وَكَلِمَتُـهُ أَلْقاهـا إِلى مَرْيَـمَ﴾ [النسـاء ١٧١/٤]، والكـون كلمة اللـَّه.

ميَّز سعيد النُّورسي بين تعريف الحرف، وتعريف الكلمة، فحرف الميم والـراء والضاد كل واحد منها لا يدل على المرض، ولكن بمجموعها يـدل علـى المـرض، وخرج بنتيجة أن دلالة الكون دلالة حرفية لا اسمية (كلمية).

ماذا تعني الكلمة؟ لم هذا السؤال؟

لأنني أشعر أننا ينبغي أن نبدأ من الصفر، لنضع من جديد قانون اللغة، قـانون التفاهم والتواصل بين البشر. في البدء ينبغـي أن نفهـم الكلمـة كشـيء مركـب، الكلمة لها أركان، وهي تؤدي دورها بأركانها الأربعة: المتكلم، السامع، المعنـى، الكلمة. وهناك شيء خامس ضروري حتى تؤدي الكلمة وظيفتها، وهـو اتفـاق المتكلم مع السامع على المعنى المحدد المراد من الكلمة، وبدون هذا الركن الأخـير لا يمكن التواصل بين البشر، وينقطع التفاهم بين إنسانين يتكلمـان لغـة واحـدة،

ومن هنا يتنازع الذين يتكلمون لغة واحدة، لأنهم لا يقبلون كون المعاني معاني حتى تكون لها كلمات تعبر عنها، ولهذا فإنه ما لم يحصل اتفاق على العلاقات والسنن الوجودية فلن تؤدي الكلمات دوراً. الكلمات لا تُحقّ حقاً ولا تُبطل باطلاً، لكننا حين نتفق على المعاني فإننا سنجد الكلمات جاهزة لنقلها في كل حين، ولعل ابن خلدون أدرك هذا جيداً في مقدمته، وكذلك الإمام الغزالي حين قال في كتابه المستصفى من الأصول: ((فمن طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك، وكان كمن يستدبر الغرب وهو يطلبه، ومن قرر المعاني أولاً ثم أتبعها الألفاظ فقد اهتدى)). الكلمات مثل الأسلاك لها استعداد أن تنقل الطاقة، ولكنها لا تولد الطاقة.

والقرآن حين كان يقول على لسان معاصريه: ﴿ما سَمِعْنا بِهَذا في آبائِنا الأوَّلينَ﴾ [القصص ٢٨/٣٦]؛ لم يذكر أنهم كانوا يقولون هذا لأن كلمات القرآن غريبة عنهم، أو لأنها ليست عربية، وإنما لأنهم رفضوا المعاني التي كان القرآن يريد أن يبلغها إياهم بواسطة اللغة العربية، ومن ذلك قول اللّه تعالى عنهم إنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً واحِداً﴾ [ص ٣٨/٥]، لم يرفضوا الكلمات، بل رفضوا المعنى الذي يريد القرآن أن يبلغهم إياه. لم يكن النزاع على اللغة، بل على المضمون.

إن مشكلة العالم الإسلامي الآن هي مشكلة معنى ومضمون، وليست مشكلة نصوص وألفاظ، فأنا لا أعاني من مشكلة الكلمات، ولكنني أعاني من مشكلة تحرير المعاني، فهل أتمكن، يا ترى، من تحرير المعنى؟ مشكلة غاليليو لم تكن مشكلة كلمات، بل كانت مشكلة معنى فلكي، مشكلة شيء متصل بالفلك وليس متصلاً بالكلمة والنص.

وأرجو من الإخوة الكرام مستمعين وقراءً أن يحرروا هذا المعنى، معنى ارتباط

الكلمة (النص) بالمعنى، لأن الكلمة ليست كالشمس، بـل هـي كـالقمر تعكـس المعنى ولا تشعه، وأكثر من ذلك فهي ليست عاكساً جيداً، لأنها تبدد الكثير من الضوء، ولكن مهما كانت هذه الوسيلة غير دقيقة فليس عنها بديل.

وللمساهمة في تحرير هذا المعنى يمكن مقارنة اللغـة الأدبيـة بلغـة الرياضيـات، فاللغة الأدبية لا تمتاز بدقة لغة الرياضيات.

لغة السيف ولغة القلم:

أذكر أنه في الأربعينيات من هذا القرن أجريت مقابلة صحفية مع المفتي (أمين الحسيني)، وذلك في بدايات الصراع العربي الإسرائيلي، كـان يقـول: "إذا تكلـم السيف فاسكت يا قلم". وهـو بهـذا يريـد القـول: العـرب الآن يتكلمـون بلغـة السيف، فينبغي أن تصمت لغة الكلام!.

متى بدأ العالم الإسلامي يتكلم لغة السيف؟ وما معنى لغة السيف؟

إن كل مشكلة يعاني منها المسلمون هي مشـكلة إنسـانية، ينبغـي تتبّعهـا إلى بدء الخليقة، أعني بدء خلق الإنسان كإنسان في الكون.

متى خرج الإنسان من الوجود الطبيعي للمادة والحياة إلى الوجود الإنسـاني؟ متى صار الإنسان خلقاً آخر وانفصل عن بقية الموجودات؟

دون أن أدخل في كيفية خلق الإنسان المادي أو المعنـوي، ودون الدخـول في تفصيل عرض هذا الموضوع بلغة الكتب المنزلة، أو الأساطير الموروثة، أو البحـث العلمي. أريد أن أعرف ما هو رأي القرآن في هذا، فهـل أشـار إلى هـذه القضيـة الجوهرية؟

لقد حسم القرآن موضوع معرفة كيفية انبثاق الوجود الإنسـاني؛ بـل وسـائر الموجودات الأخرى، حين حدد المرجع الـذي يُرجـع إليـه لمعرفـة الموضـوع كلـه

بقوله ﴿سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠].

النصُّ ليس هو المرجع في كيفية بدء الخلق كله، ومنه خلق الإنسان، بل النص يردنا إلى البحث في الأرض، في الواقع. النص يقول لنا بوضوح أن نسير في الأرض وننظر، لأن المخلوقات تنطق بلغتها الخاصة، وتنبيء عن نفسها، وعن كيفية خلقها، ومتى بدأ هذا الخلق أيضاً. الشجرة تتكلم، والحجر يتكلم، كلٌّ يقص كيف بدأ خلقه ومتى. الخلية تتكلم، والنجوم تشع بنبضاتها فتحكي كيفية خلقها، متى بدأ، وأين هي الآن، وإلى أين تسير.

متى بدأ (خلق) مشكلة العالم الإسلامي؟ متى بدأ المرض؟ هل بدأ مع أواخر الدولة العثمانية حين اتفق الجميع على تسميتها بالرجل المريض على ضفاف البوسفور؟ أو بدأ منذ أن امتنع المسلمون عن تسمية الخلفاء بـ (الراشدين)، وحصروها فقط بالأئمة الأربعة الأوائل؟ ثم ما الذي حدث حين ارتفع معنى الرشد؟ وماذا حل محل الرشد؟

الإنسان ومشكلة الحرام:

سأحدد ثلاث نقاط لتسهيل عملية الرصد:

١ ـ الوضع الحالي.

٢ ـ لحظة انقطاع وتوقف معنى الرشد في العالم الإسلامي.

٣ ـ انبثاق المشكلة الإنسانية إلى الوجود.

سأبدأ من النقطة الأخيرة لأنها البداية، من لحظة انبثاق المشكلة الإنسانية. حين بدأ الإنسان يلاحظ دورة حياة النبات في الوجود، وإمكانية تدخله في هذه الدورة، وتحوّله من جامع للثمار إلى زارع للأشجار؛ اصطدم بالشجرة المحرمة، وأكل من ثمارها، وحاول أن يتجاهل الفرق بين الأشجار التي تنمو تلقائياً، وبين

الأشجار التي زرعها الإنسان، فاعتبر الأخيرة مثل الأولى، هنا بدأت مشكلة الإنسان، ومشكلة تكيفه مع عهد الزراعة، لأن الإنسان عاش دهوراً طويلة قبل هذا العهد الحديث جداً بالنسبة للدهور الطويلة التي قبله: ﴿هَلْ أَتى عَلى الإنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكوراً﴾ [الإنسان ٧٦/١].

كان الإنسان يعيش في أرض لا حرام فيها، ليس فيها شجرة محرمة، مباحة كلها لكل آكل، فلما عجز عن التكيف مع المرحلة الجديدة، مع الشجرة المزروعة، عجز عن التكيف مع العالم الجديد الذي ولد وانبثق إلى الوجود.

هل يمكن أن نقول: ليس الذي انبثق إلى الوجود الشجرة المزروعة فقط بل انبثق معنى الحرام، معنى الممنوع، ومعنى الحدود؟ إن الطفل يظل يعاني حتى يكتسب معنى الحرام، ولكننا لانتنبه إلى ذلك: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ في السَّماواتِ والأَرْضِ يَمُرّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضونَ﴾ [يوسف ١٠٥/١٢].

ولا تزال البشرية تعاني في فهم معنى الحرام، ومعنى الممنوع، ومعنى الحدود، لماذا هي حرام؟ وإلى أي حد هي حرام؟ ما معنى الحرام، وما حدوده؟ وهل له حدود؟

إن إغراء الحرام يدفع إلى تجاهله وتجاهل حدوده، وهذا ما يغوي الإنسان ويكشف عورته، يكشف سوأته، يكشف أنانيته، يكشف تجاهله للآخر، وأنه من السهل عليه أن يحذف جهد الآخر، فتراه يقول: هذه شجرة وهذه شجرة، لـمَ تحرم علي هذه الشجرة؟

حتى الآن لم يُفهم معنى الشجرة، تلك التي عانى الإنسان طويلاً في زراعتها حتى استوت، وتجاهل هذا الجهد، وشطبه، وأخذه وكأنه غير محرم، كل هذا يولّد النزاع، ويولّد الحدود والحرام. إن مثل هذا التحول يعدّ دخولاً إلى عالم جديد في ولادة الحرام، وضرورة مراعاة الحرام، وعدم الاقتراب منه، وهو متمثل

في الشجرة التي اكتسبت معنى الحرمة.

لابد من الخضوع والسجود لهذا المعنى الجديد، فمن لم يسجد لهذا الخلق الجديد ينبغي أن يُطرد ويُخرج من الجنة التي وجد فيها الحرام..

وإذا أردنا أن نفهم صعوبة التكيف مع المراحل الجديدة، فلنتأمل الولادات الجسدية التي تحدث أمامنا، فالطفل يعيش في الرحم، ثُمَّ يقذف به بعنف إلى الوجود الخارجي خارج الرحم، خارج القرار المكين الناعم الدافئ، الذي لم يكن يبذل فيه أي جهد وحيث كان يتلقى غذاءه وشرابه من جسد أمه.

حين يقذف الوليد خارج الرحم يواجه المشكلات العصيبة، ويضطر إلى التكيف مع الحياة الجديدة، فيستخدم أعضاء لم يكن يستخدمها من قبل، إذ عليه أن يتنفس ويتغذى لأول مرة. في هذه المرحلة الانتقالية يصعب التكيف، وترتفع نسبة الوَفَيَات، فهل يمكن لنا أن نتأمل مشكلة التكيف مع معنى الولادة الفكرية الجديدة، حين نحتاج إلى استخدام أساليب جديدة في التنفس الفكري والغذاء الفكري؟

إن الأسلوب الرحمي لم يعد ممكناً، ومن أراد أن يعيش العهد الجديد فعليه أن يتكيف معه، وعليه أن يسجد لهذا الخلق الجديد: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ روحي فَقَعوا لَهُ ساجدينَ﴾ [الحجر ١٥/٢٩]، وإلا فالخروج... والرجم... واللعنة... والصَّغار... ﴿فاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدّينِ﴾ [الحجر ١٥/٣٤-٣٥]، ﴿فَما يَكونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فيها فاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرينَ﴾ [الأعراف ٧/١٣].

ألم يرفض العالم الإسلامي التكيف مع العالم الجديد؟

أليس هو الذي انتهك حرماته ورفض الخضوع لحدوده؟

أليس المسلمون اليوم هم المتكبرين عن قبول حدوده؟ أليسوا هم أيضاً الذين أُخرجوا صاغرين وكُتبوا في الأذلين من دون الناس أجمعين؟!

هل يحق لي أن أقول: إن العالم الإسلامي رفض معنى الحرام، ومعنى السجود للحرام، والخضوع له، ورفض الخضوع للقانون، ورفض أن يكون هناك قانون يسلّم به الجميع، ويخضعون له، وإنهم صاروا خارج الوجود البشري؟؟!!

في معنى القانون والحرام:

ما معنى القانون والحرام؟ لابد من دراسة هذا الموضوع دراسة شبيهة بدراسة الفيزياء والكيمياء الحيوية والمملكة الحيوانية وبيولوجيا الإنسان، فالهيدرجين طاقة مجمدة ويتحول إلى هليوم، ثم يرقى ليشكل بقية العناصر، باعتبار أن كل عنصر يتشكل بزيادة بروتون جديد، والبروتون هو نواة الهيدرجين، هكذا تدرس المركبات الكيمياوية، وهكذا يجب أن ندرس الحياة، ثم الفكر.

إن لكل وجود من هذه الوجودات سنناً وقوانين، وقد كان اهتمام القرآن منصرفاً إلى تأمل هذا الوجود وسننه، وخاصة سنن الذين خلوا من قبل، سنن الإنسان والأقوام والبشر جميعاً، ومع الأسف فإن مشكلة الإنسان والقانون والحرام لا تدرس بموضوعية وعمق، بما يشبه دراسة الظواهر الفيزيائية والكيميائية وعلم الخلية.

إن الذين ينزهون الحياة الإنسانية عن الدراسة التحليلية، والسننية الثابتة؛ يظنون أنهم يقدسون الحياة الإنسانية ويرفعون من قدرها، ولكن لا يشعرون في الوقت نفسه كم يسيؤون إليها حين لا يخضعونها للتحليل الدقيق، وينسون أيضاً ما يحدثه الإهمال والإبقاء على هذا الغموض المقدس، ولا يعلمون لصالح من يكون هذا التقديس الغامض!!..

قيل قديماً: (إنه يصيد في الماء العكر)، نعم إن عدم السعي إلى الوضوح يمكّن من الصيد في الماء العكر، فتحيّر الأمور لصالح الدنس، بينما يكون التحليل الدقيق، والتفكيك العميق، والوضوح الرائق لصالح المقدس.

ما معنى القانون؟ ما معنى الحرام (الأمر والنهي)؟ ما معنى الخلق الآخر الذي له قانونه الخاص دون جميع المخلوقات؟

الإنسان هو الخلق الآخر ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون ٢٣/١٤]. كيف نفكك معنى القانون (السنة)، ومعنى الحرام؟.

أنا لست مختصاً في القانون والدستور، ولست مختصاً في علم النفس التحليلي أو السلوكي، و لم أدرس بدقة فرويد أوبافلوف أو سكينر، وربما ساعدني ذلك على التحرر فهماً، ولكننا نعيش رغماً عنا فكرة الحرام وفكرة القانون سواء تحت ضوء الوعي أم في اللاوعي، والآن كيف نحول هذا الموضوع إلى وعي مضيء؟

كلما التقى إنسانان فإن معنى الحرام والقانون يتولد تلقائياً، فإذا دخلتَ غرفة و لم تجد فيها أحداً فلك الحق أن تجلس في أي مكان، إذ الأمكنة مباحة، أما إذا دخلت غرفة ووجدت شخصاً جالساً فيها قبلك، أو عدة أشخاص، حرمت عليك الأماكن التي يجلس فيها أشخاص مثلك، فلا يجوز لك أن تستولي على مكان أي منهم، أو تجلس فوقه. وهذا المثال التبسيطي يقرب لنا معنى الحرام لجزيء ذري.

ويمكن أن يساعدنا على فهم هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب ٣٣/٧٢]. وهذا رمز على الواقع

الوجودي، وليس كلاماً نطقت به السموات والأرض والجبال، أو الكائنات الحية.

السموات والأرض والجبال لها قوانينها الخاصة بها، والتي لا قدرة لها على الخروج عنها لحظة واحدة، والكائنات الحية خاضعة لغرائزها لا يمكن لها أن تخرج عليها، فالمخلوقات منضبطة بالسنن الفيزيائية في السموات والأرض، ومضبوطة بالسنن الغرائزية في الحيوانات، ولهذا لا يمكن لنا أن نقول للبقرة: هذه شجرة محرمة لا تقربيها. ولكن يمكن لنا أن نقول للإنسان: هذا حرام وممنوع، لا تقرب هذه الشجرة. وهو قادر على الامتثال، كما هو قادر على أن يقع في الخطيئة، بينما سائر المخلوقات لا قدرة لها على الوقوع في المعصية، فهذه هي الأمانة التي عرضها اللّه على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان.

هذا الخلق الآخر هو الإنسان، وهذه القدرة الجديدة هي الأمانة، ونحن لا نقول للذئب: لا تقرب هذه الشاة، ولا نستطيع أن نثق به، خلافاً للإنسان الذي يمكن أن يؤتمن، أو على العكس قد ينقلب إلى أخلاق الذئاب فيتخلى عن الأمانة: ﴿وَنَفْسٍ وَماسَوّاها فَأَلْهَمَها فُجورَها وَتَقْواها قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها﴾ [الشمس ٩١/٧-١٠].

لنتأمل حديث رسول اللّه: ((واللّه لا يؤمن.. واللّه لا يؤمن.. واللّه لا يؤمن))، قيل: من يا رسول اللّه؟ قال: ((من لا يأمن جاره بوائقه))[1]. إذا كان جارك ليس على ثقة وطمأنينة وأمن من أن تلحقه شرورك فإنك لا تكون مؤمناً، ولا تكون ممن حمل الأمانة، ولا تكون ذئباً فحسب؛ بل ما هو أسوأ من الذئب

(١) ـ أخرجه البخاري في الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٥٦٧٠)، ومسلم في الإيمان، باب: بيان تحريم إيذاء الجار، رقم (٤٦).

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعونَ أَوْ يَعْقِلونَ؟! إِنْ هُمْ إِلاّ كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً﴾ [الفرقان ٢٥/٤٤].

نستطيع أن نتفادى الصواعق بالمانعات، ونستطيع أن نتفادى الذئاب بالكلاب، أو الرعاة اليقظين، ولكن كيف نتفادى خيانة الإنسان؟!

الرعد لا يكذب، والذئب لا يكذب، ولكنّ الإنسان يقدر على ممارسة أعتى أشكال الكذب، وقد لا تستطيع احتواءه. ولهذا جاء الحديث بأن المؤمن لا يكذب، قد يقع في إغراءات أخرى ولكنه لا يكذب، وإذا وقع في الكذب فإن لديه القدرة على الاعتراف والتوبة. أما ألا نعترف بالحرام ونصير كالذئب كل الشياه له حلال، فإن هذا يحيلنا إلى كائنات بئيسة نكدة، وإلى ما قبل الخلق الآخر، ما قبل الإنسان، ما قبل حمل الأمانة.

انبثاق المشكلة الإنسانية:

كيف ومتى ضيعنا الأمانة؟ كيف نضيء هذا الموضوع؟ إن تشخيص المرض ومعرفة مصدره يساعد كثيراً على التخلص منه، ومنعه من الحدوث ثانية.

لماذا سمى المسلمون الخلفاء الأربعة بعد الرسول ﷺ بـ (الراشدين)؟ ولماذا لم يصفوا من جاء بعدهم بالرشد؟ إلا ما قيل عن عمر بن عبد العزيز؟ لماذا لم يطلق لقب الرشدين على كل من أتى بعد ذلك في كل التاريخ الطويل العريض؟ ما معنى هذا الصمت، وهذا السلب، وهذا الكف؟ كيف ضاع الرشد وماذا حل محله؟ أنا لا أقول: إنني سأكشف كل شيء، ولكنني أقول: هنا بدأ الضلال، وهنا ضُيِّعت الأمانة، وكما يقول المثل (هنا ضيع القرد ابنه).

علينا أن نبحث وندقق في البحث، وعلى الشباب الذين يأتون من بعدنا أن يضعوا تحت المجهر هذا الأمر الذي سكت المسلمون عنه، و لم يعودوا يبحثون عنه

بوعي ووضوح، وإذا كان لديهم بعض العذر فنحن ليس معنا أي عذر بعد أن رأينا آيات اللّه في الآفاق والأنفس.

علينا، بعد أن رأينا تاريخ البشر، أن نسأل ماذا حدث؟ والجواب أن الذي حدث هو أن السلطة تُنال بالقوة، بالسيف، وهنا نلتقي بالسيف مرة أخرى، سيف أمين الحسيني، ولعل ابن خلدون كان الوحيد الذي بحث هذا الموضوع، ووضع الاسم الذي يقابل الرشد، فابن خلدون هو الذي وضع مقابل حكمَ الرشد والدين والإيمان واللّه: حكم العصبية!!.

إنه شيء مهم علينا أن نتابعه، ونبحث إمكانية تحويل العصبية، فبدل أن تتعصب للقبيلة والعشيرة تتعصب للحق، إن جاز التعبير، وهذا ما لم يكن في مقدورهم التفكير به، ولعل الحكمة من ذلك أن يظل الرسول ﷺ معجزة سننية، معجزة لا بمعنى أنها خارقة للعادة كما فسرها علماء الكلام، ولكن معجزة سننية، من دون خوارق، بل بسنة واضحة متألقة.

كان على المسلمين، ولا يزال عليهم، أن يبحثوا معاني الرشد، وأن يدققوا بالبحث المجهري، ليتبينوا الشيء المقابل للرشد المسكوت عنه، فبضدها تتميز الأشياء.

اعتبر المسلمون عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين عهداً خارقاً، شأناً إلهياً، وهدية ربانية، وعدّوه بذلك غير قابل للاهتداء والاقتداء والإعادة. لم يروا فيه شأناً سننياً بشرياً قابلاً للمعرفة، وممكن الإعادة، وغاب عنهم أنه بدون هذا لا يكون الرسول ﷺ وأصحابه قدوة قابلة لأن يقتدى بها، لأنهم خارج القانون.

بعد عهد الرشد لم تعد السلطة للحق والعدل والإيثار، بل صارت للاستئثار والأخذ بالقوة، وصارت القاعدة الناظمة هي: ((فإن هلك هذا فالخليفة هذا،

ومن رفض هذا فله هذا، ويرفع السيف)) ونلتقي مرة ثالثة بسيف الحسيني.

هنا ضُيِّعت الأمانة، هنا رجع الإنسان إلى عهد الظُفْر والناب، ودخل عهد الفساد وسفك الدماء، وحدث بهذا التحول شيآن خطيران جداً وهما: الأول: ظنُّ المسلمين أن إعادة الصواب والرشد تكون بالأسلوب نفسه الذي زال به، أي بالسيف. والأمر الثاني الخطير هو نسيان الجهد الذي بذله الرسول ﷺ في الوصول إلى السلطة دون عنف ودون سيف، لأنهم ظنوا أن سلوك هذا الطريق لم يعد ممكناً مرة أخرى، وأنه عهد نسخ ولن يعود أبداً، وبذلك لم يعد لنا في رسول اللّه أسوة حسنة. إنه شيء فات أوانه ولا يشكل لنا سنة أبدية نهتدي بها كلما ضللنا الطريق.

إن هذين الخطأين كانا خطأين مميتين، بل ولا يزالان يمنعان المسلمين من اللحاق بالعالم، فضلاً عن أن يعيدوا تجديد دعوتهم لإعادة البشرية إلى عهد الأمانة.

بهذين الخطأين المستبطنين لم يعد المسلمون يستفيدون من القرآن، ولم يعد القرآن مهجوراً فحسب بل إن سنة رسول اللّه ﷺ أصبحت منبوذة خلفهم ظِهْرِيّاً أيضاً.

ونتج عن هذين الخطأين القاتلين خطأ ثالث وهو أن المسلمين حين آمنوا بأن القوة هي التي تعيد الحق إلى نصابه، استخفّوا بقول الحق، وجهلوا أهميته، ولم يروا أنه الأساس الذي يلجم القوة الغاشمة، ولم يفطنوا إلى أن شريعة الغاب لا تُزال بشريعة الغاب، وظنوا أنه لا مانع من مقابلة الخيانة بالخيانة بدل مقابلة الخيانة بالأمانة، وهكذا ضاعت الأمانة وضاع معها كل الأمن الاجتماعي.

نتج عن هذه التصورات أن الجهود توجهت إلى توفير القوة والسيف الذي

يعيد الحق إلى نصابه بدل العودة مرة أخرة إلى قول الحق، وجمع الناس لإعادة حياة الرشد من جديد، كما بدأت أولاً، وحين صار الجهد كله مبذولاً في هذا التخطيط، فقدنا الأمانة والحق الذي قامت عليه السموات والأرض، بل وفقدنا حياة البشر أيضاً. فقدنا الثقة ببعضنا، فالحاكم صار يحرص على التخطيط لحفظ ملكه بالقوة، وصار المعارض يتربص الفرص، ويجمع الأعوان للانقضاض على الحكم، و لم يعد أحد يثق بأحد، حتى الأخ يقتل أخاه، والأب يقتل ابنه، والثوار يقتلون أعوانهم بعد نجاحهم، وكأن هذا لا مانع منه ولا حرج فيه! و لم نفطن إلى ما خسرناه حين خسرنا الأمانة والثقة، وأبحنا الخيانة والغدر، لمن تيسر له القيام بذلك بخطة محكمة. ولست بحاجة إلى ذكر مآسي التاريخ. لقد نسينا سنة رسول اللّه ﷺ وأصحابه حين كانوا في مكة يريدون أن يغيروا الأوضاع، نسينا أنهم كانوا موضع ثقة القرشيين على أموالهم وأعراضهم ودمائهم أكثر مما يثق القرشيون بإخوانهم وأبنائهم!!..

قول الحق وإزالة الباطل:

هل كان حِرْص رسول اللّه ﷺ على هذا الوضع، ومنعه أصحابه من رد الاعتداء؛ حدثاً لحظياً مكانياً؟ أو أن هذا هو القانون الثابت الأبدي، في كل مكان وزمان، لإعادة الأمور إلى نصابها؟ هل فكر المسلمون في إيجاد معارضة يثق بها صاحب السلطة أكثر من ثقته بحرسه الخاص بأنه لا يأتي منهم غدر أو خيانة؟ والجواب: لم يفكر المسلمون بهذا حتى الآن ولا حتى بإعادة النظر فيه، ولا بإضاءته وإيضاحه وإظهاره.

إن هذا السلوك، بحسب فهمي، أُوحي إلى محمد ﷺ وأُلهم أن يتبعه، وقد التزم به هو وأصحابه من طرف واحد، و لم يَطلب من الآخرين التزامه، و لم يبال بخصومه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهـا﴾ [الفتح ٢٦/٤٨].

بدأ العلاج من نقطة الصفر، ومن طرف واحد، ولم يكن له رأسمال إلا الحق المبين يلتزمه في أحلك الظروف وأقساها، كان يثق بالفطرة الإنسانية، وبأنها قابلة للانتصار بالحق الواضح المنير، وليس بالقهر والقسر.

وأمر آخر ينبغي أن نلفت الانتباه إليه وهو: أن قول الحق لم يَعدم له أصحاباً في التاريخ الإسلامي، إلا أنهم لم يصلوا إلى درجة تشكيل قوة سلمية يُعتد بها في إقامة الحق الضائع، وإنما كان حال أحدهم كالمنتحر بإعلانه المعارضة، وكأنه يعرّض نفسه للموت المحتّم، فاختلط قول الحق بتدبير الخطط للانقضاض على الباطل وقتله واقتناص الحكم من بعده، وعلى المسلمين الآن أن يزيلوا هذا الالتباس والارتباط بين قول الحق وإزالة الباطل بالاعتداء عليه، كذلك أرى أن نكشف شيئاً آخر من الأمور اللامفكَّر فيها وهو أن الإسلام، بحسب ما أفهم، منع الوصول إلى السلطة بالقوة، ولم يُجِزْه إلا بالتراضي، هذا ما فعله رسول اللّه ﷺ حين صبَر صبْر أولي العزم من الرسل وهو سيدهم، إلا أن المسلمين فهموا أن هذا خصوصية لرسول اللّه ﷺ وللعهد المكي، وبهذا التخصيص فقد المسلمون أعظم كنز نزل من السماء ونبت في الأرض، ولم يفطنوا إلى أن الرسول ﷺ كان حريصاً جداً على أن يبيّن للمسلمين الذين يأتون من بعده أن عليهم ألا يحاولوا الوصول إلى الحكم بالقوة، وألا يقاوموا الذين وصلوا إلى السلطة بالقوة، وأمرنا أن نعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن نعض على جذع شجرة، بل أمرنا أن نتلف أسلحتنا، وأن نلتزم بيوتنا!!..

إنه كان ينظر من وراء الغيب حين كان يقول: ((اكسروا قسيكم، واقطعوا أوتارها، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دخل - يعني على أحد منكم - فليكن

كخيرا بني آدم))[1]، وفي رواية ((كن كابن آدم، وإن دخل عليك بيتك يريد أن يقتلك فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمه وإثمك))[2]، وتلا الراوي: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أنا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة ٢٨/٥].

لعل كثيراً من القراء والمستمعين يشعرون أنني أتحدث في واد وهم في واد آخر! وعلي أن أقر بأن الذين يخالفونني الرأي يهتمون بالإسلام وخدمته مثلي، إلا أنني أختلف معهم في وجهة النظر عند هذه المشكلة العويصة، بل إن بعضهم يرى أن الذي أتحدث به مجرد خيالات وأوهام، وأنه مضاد للفطرة البشرية، وقد صرح لي بعضهم بذلك، ولكن: ﴿فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّه الأَمْثالَ﴾ [الرعد ١٧/١٣].

بعد هذا العرض الموجز جداً، والمطول أيضاً هل يمكن لنا أن نتساءل: هل العالم الإسلامي مريض ومريض جداً وفي حالة صعبة جداً؟ وأن هذا المرض كامن في الفهم والإدراك والتصور لنظام العالم الذي نعيشه ونظام الإنسان وإمكانية فساده وصلاحه؟

عواقب إجازة الغدر والخيانة:

بعد أن أجاز المسلمون أن تخون من خانك، وأن تأخذ الملك بالقوة ممن أخذه

---

(١) ـ أخرجه أبو داود عن أبي موسى الأشعري في الفتن والملاحم، باب: النهي عن السعي في الفتن، رقم (٤٢٥٩).

(٢) ـ أخرجه أبو داود في الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة، رقم (٤٢٥٦و٤٢٥٧و٤٢٦١)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء إنه تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، رقم (٢١٩٥)، وابن ماجه في الفتن، باب: التثبيت في الفتنة، رقم (٣٩٥٨)، وفي الباب عن أبي هريرة وخباب وأبي بكرة وابن مسعود وغيرهم.

بالفوه دخلوا (المارستان التاريخي الكبير) الذي ما زالوا يعيشون فيه، هكذا أتصور - وبكل العزم والحزم - المطب التاريخي الذي هوى فيه المسلمون.

حين فقد المسلمون الثقة فيما بينهم و لم يعد يأمن بعضهم بعضاً، صرنا إلى ما نحن فيه، وهذا يتطلب علاجاً بصورة ملحّة ومستعجلة.

ما من دولة أو سلطة إسلامية اقتنصت الحكم إلا وتنظر إلى من هو أضعف منها من الجيران على أنه فريسة دسمة سهلة للانقضاض ليؤخذ ويضم إلى الملك والسلطان، وبالطبع فليس هناك أسهل من ادعاء أن ما يفعله هو في سبيل اللـّه وعزة المسلمين، ولكن لنتساءل: لو تعرض ملكه هو إلى انتقاص حجر واحد منه، ألا يعتبر أن هذا مضاد للإسلام وعزة المسلمين؟! هذه الحقائق المرّة ينبغي أن يُسلط عليها الضوء وتُعرّى من أغلفتها المزورة الكاذبة، فالأمر كما يقول إقبال:

بِخداعِ النَّفسِ والظُّلمِ دَعا نهبهُ فتحاً وبئس الْمُدَّعَى

يقولون: إن أحد علماء النفس السلوكيين كان يقوم بتجارب على الحيوانات لدراسة تكوّن الشرط المنعكس وزواله، فكان يريد أن يربط بين ضوءٍ دائري وتقديم الطعام، فإذا أُنير الضوء قُدم للحيوان الطعام، وضوءٍ بيضوي آخر فإذا أُشعل صُدم الحيوان بصدمة كهربائية، فصار الحيوان بعد التجارب يفرح بالضوء الدائري المرتبط بالطعام، ويسيل لعابه، ويرتعب من الضوء البيضوي، ويهرب منه، ولكن المدرب بدأ يحول وببطء الضوء البيضوي إلى دائري حتى اختلط البيضوي بالدائري، فلم يعد الحيوان يميز هل سيصاب بصدمة كهربائية أو سيُقدم له الطعام؟ فأصيب بالجنون والخمول واستسلم لليأس لأنه فقد قاعدة التمييز بين النافع والضار.

كأن العالم الإسلامي يعيش هذه الحالة البائسة!! إن أمراض المسلمين كثيرة وكثيرة جداً، ولكن المرض الأم هو تضييعهم للأمانة والثقة وعدم التزامهم

النصيحة، النصيحة التي لا تضمر الغدر، النصيحة الخالصة التي يخص بها الإنسان أحب الناس إليه، بل يؤثره بها على نفسه، إنه لا يضمر له الغدر والخيانة، ولكن يصدقه النصيحة، ويرشده إلى الخطأ. متى يصبح لدينا علماء نفس وصوفية، وأناس ربانيون يكشفون لنا أن طريق الصدق يهدي إلى البر، وأن البر يهدي إلى الجنة، وأن الكذب يهدي إلى الفجور، وأن الفجور يهدي إلى النار؟

أزمة العلاقة بين الدين والسياسة:

من هنا نفهم أزمة العلاقة بين الدين والسياسة، الدين المبني على الصدق والأمانة، والسياسة المبنية على الكذب والخداع والخيانة، فحتى العوام من المسلمين فهموا أن الدين والسياسة متناقضان تماماً، فهل يمكن فهم أن السياسة أيضاً يمكن أن تبنى على الصدق والأمانة؟

إذا كان عوام المسلمين يرون التناقض حتمياً بينهما، فإن الإمام محمد عبده، لم يزد على ذلك، حين لعن السياسة والسياسيين وكل مشتقات لفظة سياسة.

أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى لعن أحد، حين نؤسس قاعدة جديدة لسياسة جديدة، فنضع ثقتنا بالصدق والأمانة، ولو من طرف واحد، وننبذ الكذب والخيانة بطمأنينة. إن رؤية هذا الموضوع بوضوح يجعل العمل غير قابل للانتكاس أبداً ﴿كَتَبَ اللَّه لأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلي﴾ [المجادلة ٥٨/٢١].

سأل أحد أتباع الحكيم الصيني كونفوشيوس أستاذه عن قوام السلطة أو المُلك فأجاب: يجب أن توفر السلطة ثلاثة أشياء:

١ ـ لقمة العيش الكافية لكل فرد.

٢ ـ التجهيزات العسكرية الكافية.

٣ ـ القدر الكافي من الثقة.

وعندما سأله التلميذ: وإذا كان لابد من الاستغناء عن أحد هذه الأشياء الثلاثة فبأي شيء نضحّي؟ فرد الأستاذ: بالتجهيزات العسكرية، وعاد التلميذ وسأل: وإن كان لابد من الاستغناء عن أحدهما أيضاً فعن أيهما نستغني؟ فأجابه: في هذه الحالة نستغني عن القوت، لأن الموت كان دائماً مصير الناس ولكنهم إن فقدوا الثقة لم يبق أي أساس للدولة!!..

مشكلة شراء الأسلحة وتكديسها:

دعونا نفكر قليلاً في بعض مظاهر حياتنا، إننا منذ سنين طويلة نشتري السلاح، ونعود لشرائه من جديد، دعونا نسأل سؤالاً آخر وهو: هل يمكن أن يبيعك عدوك، أو يسمح أن يصل إليك سلاح يمكنك أن تضره به؟ أنا لا أُصدّق هذا، ولكن لماذا نفعل هذا؟ إن هذا السلاح شبيه بالخذف (الرمي بحصيات صغيرة بالأصابع) الذي نهى عنه رسول اللّه ﷺ وقال: ((إنه لا يقتل الصيد ولا ينكأ العدو وإنه يفقأ العين ويكسر السن))[1]!! لا شك أن الأسلحة التي نشتريها لن تفقأ عين العدو، فضلاً عن كسر سنه، ولكنها ستفقأ عيون المسلمين، وتخرب ديارهم، كما فعلت بإيران والعراق وباكستان والعرب جميعاً!! إنهم يتسلحون بالصواريخ والغواصات، وأنا بأفكاري الغريبة ربما أقول: إنها لن تقتل غير المسلمين، وبمجرد أن تصبح خطراً على مستغلي العالم الإسلامي، فسوف تُدمّر في أمكنتها على الأرض، أو في قاع البحر، وفي ساعات قليلة، وقد حدث هذا، وسيحدث مرات ومرات، وسوف يستمر مادامت تصوراتنا كما هي.

إن السبعة الكبار في العالم تقاسموا السوق العربية والإسلامية، فبكين

---

(١) ـ أخرجه البخاري في الأدب باب النهي عن الخذف (٥٨٦٦)، ومسلم في الصيد والذبائح باب إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو وكراهة الخذف(١٩٥٤)، كلاهما عن عبد اللّه بن المغفّل.

وموسكو تبيع الأسلحة لبعض الأطراف الإسلامية، وأمريكا والدول الغربية للطرف الآخر، أما اليابان فتبيع بدل السلاح السيارات والفيديو والكاميرا والتلفزيون، ما أبدعها من سوق استهلاك، وما أعظمها من سوق مواد خام بأسعار بخسة زهيدة!!...

والآن ما هو الحل؟ وما هو البديل؟ إنها ليست موعظة لصاحِبَيْ المال والشرف اللذين شبههما رسول اللّه ﷺ بالذئبين الجائعين أرسلا على غنم!! لكنها لأولئك الذين يقفون على المنابر في كل مكان ليتحدثوا إلى الناس الذين ليس لديهم مال أو جاه يخافون من ضياعه، وللذين يمسكون بالأقلام ليكتبوا، عليهم أن يتبصروا بأوضاع العالم الذي نعيش فيه، وأن يعلنوا أن علينا، ألا نفرح بالأسلحة التي تشترى، لأنه مكتوب عليها قبل أن تخرج من رحم أمها أنها لا تضر صانعها!!.. ثم هناك شيء آخر موجود في عالمنا الذي نعيش فيه، ولا نعتبر به، ونشعر أننا لسنا بحاجة إلى أن نقرأه في الكتب، رغم أنه، يحدث تحت سمعنا وأبصارنا، وهو أن الأسلحة التي استولت على شغاف قلوبنا، لم تستطع أن تحمي الاتحاد السوفيتي من الانهيار، رغم أنه يملك ما يستطيع أن يدمّر به الكوكب الأرضي وما على ظهره من حياة نباتية وحيوانية وإنسانية ولعدة مرات!!.. كما أنه لم يمنع اليابان كونها لا تملك السلاح النووي، أن تصبح في مقدمة الدول الصناعية السبعة التي تقود العالم اليوم!! أي أنه لا امتلاك السلاح الأعظم، ولا عدم امتلاكه في هذه الأمثلة العملاقة التي تفقأ العين كان هو الذي كسر ميزان الصعود والنزول!!

إن السلاح لم يعد يهدد إلا الحمقى والمغفلين في العالم....

إن كشف الحقائق ليس جريمة ومع ذلك يمكن أن يعرّض صاحبها للموت!! ولا حرج في هذا، فلنعش مثل بلال لنقل: أحد.. أحد، ولنمت مثل ياسر وسمية

في سبيل إيماننا وفهمنا فقط، لا لأننا كنا ندبر اغتيالاً لأبي جهل وأبي لهب!!
متى سيتعلم المسلمون مبادىء الرياضيات حتى يعلموا أين يكمن الربح، وأين تكمن الخسارة؟

مشكلة التخلف ومشكلة فلسطين:

ليست المشكلة في أصحاب المال والشرف، إنها في المثقف بلغة هذا العصر، نعم نحن المشكلة!!.

كنت قد صدمت حين قرأت لمالك بن نبي أن العالم الإسلامي يعتبر مشكلة فلسطين أكبر وأول مشكلاته، فقلب الصورة لدي حين اعتبرها إفرازاً للمشكلة الجوهرية، واختلاطاً من اختلاطات المرض الأولي، الذي هو التخلف، ففي العالم الإسلامي مشكلات كبيرة أكبر من إسرائيل وأمريكا، وهي حين تنفجر تنسينا أمريكا وإسرائيل!! ويظن المثقفون أنهم يجب أن يكونوا مع أحد الأطراف لدعم وترسيخ شرعية أحد الأطراف، بدل أن يعذر بعضنا بعضاً، متى نبدأ بالإحساس بالقرف من مثل هذه التصرفات؟ متى يصير الذين يمارسونها يشعرون بالخجل والحياء؟

أليس الذين صنعوا الحربين العالميتين يحلون مشاكلهم الآن بدون حروب؟ ألا يحدث هذا تحت أسماعنا وأبصارنا؟ أليسوا يتفقون من غير أن يخسر أحد منهم سلطاناً، ولا مالاً، ولا أرضاً، ويكسب الجميع؟ أليس هذا ممكناً فيما بيننا إذا تركنا التبشير بتحرير فلسطين عبر تحرير العواصم العربية بواسطة المستبد العادل أو المهدي المنتظر؟ إن فلسطين ستحرر، وستُحل بقية المشكلات إذا فرضنا الثقة من جانب واحد، لا أن نظل نتهم الإمبريالية والصهيونية، والصليبية، والماسونية، والشيطان، وأذنابهم وأعوانهم، لأن الشيطان وأذنابه ليس لهم علينا سلطان ﴿إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الحجر ١٥/٤٢]، ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ

سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لي﴾ [إبراهيم ١٤/٢٢].

دعونا نفرض الأمن من طرف واحد كما فعل محمد ابن عبد اللّه ﷺ، دعونا نقرأ سيرته من جديد!! دعونا نبشر بالصدق والأمانة فيما بيننا!! دعونا ننسَ ونشمئزّ ممن يريد أن يحيي أيام الجاهلية وأشعارها!! ومؤلفاتها الحزينة من إحياء الثارات، التي كانت بين الأوس والخزرج!! دعونا ننسَ مطارحات الرافضة والمرجئة والمعطِّلة والجهمية!! دعونا نبدأ بالنظافة والتنظيف من داخل بيتنا الخاص وفيما بيننا، نحن المثقفين، حتى نكون قوامين بالقسط شهداء للّه، ولا يجرمنا شنآن غادر على حب ودعم غادرٍ آخر!! دعونا نخرج من مسلسل الخيانة إلى تفهم معنى الأمانة لنحملها بجدارة، حتى لا نكون جهلاء ظالمين!!

الجهاد النبوي وجهاد الخوارج:

قبل أن أختم بحثي أرى من الواجب علي أن ألقي شيئاً من الضوء على موضوع الجهاد الذي فرضه الإسلام.

إننا في العالم الإسلامي فهمنا الجهاد برمَّته فهماً خاطئاً، ولكن كيف يمكن أن أثبت هذه الدعوى؟.

أولاً ـ شاهدي الأول أن وضع العالم الإسلامي المهين يساعدني على أن أعطي حق الحياة لأفكار جديدة بديلة، لأن ما هو موجود من الأفكار فقد مصداقيته، فهناك تطابق ما بين الواقع المهين وما بالأنفس من أفكار وتصورات، هذا التصور يساعدني على اتهام أفكار المسلمين بأنها ليست بريئة.

ثانياً ـ هناك شيء آخر لعله يساعدني أيضاً على أن يكون لي الحق في تبني تصورات جديدة، وهو أن في التراث النبوي مدحاً كبيراً للجهاد

وقد جعله الرسول ﷺ ذروة سنام الإسلام، ولكن في هذا التراث بالذات ذم لنموذج من الجهاد سمي فيما بعد بالخروج وسمي ممارسوه بالخوارج، ولعل التسمية مستمدة من قوله ﷺ: ((يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية))[1].

وقد كانوا كذلك، راجع مثلاً خطبة أبي حمزة الخارجي في وصف عبادة الخوارج.

هذان الموضوعان لم أر أحداً من المسلمين بحثهما، وذلك كأن يضع بحثاً في المقارنة بين جهاد رسول اللّه ﷺ وجهاد الخوارج، و لم يذكر أحد من الباحثين هذا الأمر ـ حسب اطلاعي ـ وحتى لو وجد في بطون الأوراق شيء منه، فليس في أذهان العلماء شيء من هذا قط، وكنت مضطراً لأن أبحث هذا الموضوع، فتبين لي أن المسلمين أجمعين صار فهمهم للجهاد متطابقاً مع فهم الخوارج، وبعيداً عن ممارسة رسول اللّه ﷺ، وإن كانت الروايات تقول بوجود جهادين.

على كافة الأحوال فإن الشروح لم تُكتب إلا بعد زوال عهد الراشدين والرشد بوقت طويل، ولهذا سَهُلَ عليهم أن يتجاهلوا الفرق بين الجهاد عند المسلمين جميعاً وبين مفهوم الخوارج للجهاد.

ألا فليفرح بقايا الخوارج أو المذهب الخارجي لأن العالم الإسلامي كله تحول

---

(١) ـ أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به، رقم (٤٧٧١)، ومسلم في الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤) وغيرهما.

إلى مُذهبهم في الاعتقاد، وان كان بعضهم يمثلون مذهب القَعَدة من الخوارج!..

على سبيل الدعابة أسأل أحياناً: ما الفرق بين جهاد رسول اللّـه ﷺ وجهاد الخوارج؟ فيصدم السامعون ويفاجؤون، ذلك أن هذا التفريق حيوي وبنيوي وتبنى عليه نتائج هامة للغاية في الحياة الإسلامية.

إن الجهاد في الإسلام، الجهاد بمعنى القتال وممارسة العنف، هذا الجهاد لم يشرع للوصول إلى السلطة، فلا وصول إلى السلطة بالعنف في الإسلام، هذا شيء أساسي، ومن هنا كان صبر رسول اللّـه وأصحابه السنين العجاف الطوال، صابرين على كل الأذى، حتى وصلوا إلى الحكم بدون ممارسة عنف حتى على مستوى الأفراد فضلاً عن ممارسته في مستوى الجماعة.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبوا، وَأوذوا، حَتى أتاهُمْ نَصْرُنا، وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللّـه، وَلَقَدْ جاءَكَ مِن نبأِ الْمُرْسَلينَ﴾ [الأنعام ٦/٣٤].

لقد نسخت هذه السنة العظيمة الجليلة التي لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يشكك فيها!! نسخنا هذه السنة العظيمة فصرنا منسوخين من العالم أجمعين!!..

هذه السنة لا يمكن أن يقدر قدرها إلا من عرف تاريخ البشر، وتطور التاريخ، ولهذا كانت هذه السنة أبدية، بل ومعجزة علمية لا خوارقية للإسلام.

لا زال المسلمون ينامون على المعجزات الخوارقية، ولكنني أعتبر التزام رسول اللّـه ﷺ وأصحابه الدعوة السلمية للوصول إلى السلطة كان من أكبر السنن التي ينبغي أن نحييها، وسوف لن تجد البشرية أفضل، ولا أعمق لحل مشكلة السلطة والوصول اليها من هذا الموضوع الكبير والخصب والطازج جداً، والذي يتألق

بهاءً وضياءً على مر الزمن.

إذن لا جهاد بالعنف للوصول إلى السلطة، بالدليل العملي الممارس، والقولي خلال ثلاثة عشر عاماً لم تُشهد أي بادرة عنف من أصحاب رسول اللّه ﷺ، هذه الظاهرة ليست مأخوذة من النصوص فحسب، بل من الممارسة الميدانية، من ممارسة عملية استمرت أكثر من عقد كامل من الزمن، والتزام الرسول والصحابة التزاماً شديداً بهذه الاستراتيجية، و لم تسجل أي حادثة اختراق لهذه الخطة في الوصول إلى السلطة. هذه هي سنة الوصول إلى السلطة في الإسلام، وهذا الأسلوب في الوصول هو الذي يحمل الشرعية في داخله، ولا يستمدها إلا من ذاته، فتحريم العنف للوصول إلى السلطة، والصبر على اقتناع الناس وقبولهم، هذا هو دليل الكفاءة للسلطة ودليل شرعية هذه السلطة.

وقد ظن المسلمون أن هذا إنما كان عقداً من الزمن فات أوانه، ورجع الأمر إلى ما كان عليه سابقاً، من جواز أخذ الحكم بالعنف، ولذلك شهد تاريخ الإسلام عدم نمو بذرة (اللاعنف)، في الحين الذي شهد فيه نمواً وانتشاراً لبذرة (العنف)، بذرة الوصول إلى الحكم بطريق شرعي بقيت بذرة خامدة، أما بذرة جواز الأخذ بالعنف من الذي أخذ بالعنف فقد أصبحت بذرة نامية، بل وشجرة باسقة!! حتى لم نعد نتصور أسلوباً ممكناً غير هذا الأسلوب في تبادل ونقل السلطة. إنها مشكلة شيقة وعويصة ويجب أن يكثر شبابنا الدراسات فيها وحولها، حتى نعلم أن الذي يستبيح أخذ السلطة بالقوة هم الخوارج الذين قلنا عنهم إن العالم الإسلامي كله قد تحول إلى مذهبهم اليوم!!..

وظيفة الجهاد:

رغم كل الإثارة والتشويش والمخاضة، أشعر أني أرى شيئاً في الواقع لا يُرى في العادة في كتاب، وأرجو أن أتمكن من إقناع بعض الناس، مهما كان عددهم

ضئيلاً، بأن الوصول إلى السلطة بالعنف، ليس من الإسلام، لأن الرسول ﷺ لم يصل بالعنف إلى السلطة، ولأن المسلمين لم يقولوا عن الذين وصلوا إلى السلطة بالقوة (راشدين)، ولكنهم أخطؤوا حين خُيِّل إليهم أنه يجوز أن نأخذ بالقوة ما أخذ بالقوة!!. وإذا كنا وصلنا إلى هذه النقطة من البحث، فلا حرج بل واجب ضروري أن نذكر وظيفة الجهاد. ما هي وظيفة الجهاد إذن إن لم يكن وسيلة للوصول إلى السلطة أو إعادة السلطة على الشكل الذي قررناه وحررناه؟

وظيفة الجهاد بعد الوصول وبالطريق الشرعي إلى السلطة أن يردع بكل الغلظة والثبات وعدم التراجع من يمارس أمرين فقط لاغير: الأول هو إخراج الناس من عقائدهم بالقوة والإكراه مهما كانت هذه العقائد والآراء صائبة أو خاطئة، إذ ليست العبرة فيما يحمل الإنسان من فكر، بل في تأمين حرية الاختيار أمامه بالدخول أو الخروج من وإلى أي فكر. والثاني إخراج الناس من ديارهم. وما لم يمارس المجتمع أو الفرد هذين الأمرين فلا جهاد ضده، فالجهاد إذن ليس ضد الأفكار بل ضد الممارسة العملية وضد من يمنع الحرية الفكرية، وهذا نجده أوضح ما يكون في أواخر ما نزل من القرآن في سورة الممتحنة: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللّه عَنِ الّذينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ في الدّينِ وَلَمْ يُخْرِجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرّوهُمْ وَتُقْسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّه يُحِبُّ الْمُقْسِطِين. إِنّما يَنْهاكُمُ اللّه عَنِ الّذينَ قاتَلوكُمْ في الدّينِ وأَخْرَجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَروا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأولَئِكَ هُمُ الظّالِمونَ﴾ [الممتحنة ٦٠/٨-٩].

لقد نسي المسلمون هذه المهمة العالمية الكبيرة، وهي أن يكونوا حماة عقائد الناس ومنازلهم، والبر بهم، والقسط بينهم ما لم يمارسوا هذين الأمرين، نسي المسلمون المبادىء التي تجعل الناس النزيهين ينضمون إلى هذا الميثاق العالمي على اختلاف أديانهم وعقائدهم.

سيأتي مرة أخرى نصر اللّه والفتح، وسيرى الذين من بعدنا، إن لم نر نحن، الناس يدخلون في هذا الحلف الدولي أفواجاً.

يمكن أن نقول إذن: للجهاد شرطان:

شرط في المجاهِد، وشرط في المجاهَد، شرط المجاهِد أن يصل إلى السلطة من دون عنف وقهر، بل برضا الناس وقبولهم. وشرط المجاهَد: هو أن يكون من الذين يخرجون الناس من أديانهم، مهما كانت هذه الأديان، ويخرجونهم من ديارهم أينما كانت هذه الديار (العالمية)، فمن فعل الأولى كان إمام الجهاد الإسلامي، ومن ظَلم الناس شُرع الجهاد ضده، ولو عد نفسه إمام المسلمين، ورفع فوق رأسه أكبر عمامة، وحمل المصاحف على رؤوس الرماح!! من يمارس قتل الناس لعقائدهم ويخرجهم من ديارهم يُقاتل، ولو كان مسلماً، فالجهاد شُرع ضد الظلم، و لم يشرع ضد الكفر، وهذا تفريق مهم للغاية، من هنا قال الإمام علي ﷺ لأصحابه عن الخوارج: ((لا تبدأوهم حتى يسفكوا دماً حراماً)).

ويمكن أن نقسم حياة رسول اللّه ﷺ إلى قسمين: قسم أثبت فيه شرعية الوصول إلى الحكم من دون عنف، وذلك في المرحلة المكية، وقسم أثبت فيه متى تكون الحرب مشروعة (شرعية الحرب) أي لحماية عقائد الناس، العقائد المختلفة، ولحماية ديارهم من أن يُخرَجوا منها، فالحرب تُشنُّ فقط لكي لا يبقى أحد يطمح في فرض عقيدة معينة على الناس، ولكي لا يبقى أحد يطمح في أن يَسْلم وهو يخرج الناس من ديارهم.

دعوني أحلم، دعوني أهيم، دعوني أَبْكِ دماً لا دمعاً على المسلمين، الذين يقتل بعضهم بعضاً، في سبيل الوصول إلى السلطة. إن من يصل إلى السلطة بالقوة يثبت أنه غير كفءٍ لها، ألم نقتل عثمان وعلياً وبني أمية، ولا نزال نقتل ونقتل؟!.

لا أدين المسلمين لأنهم يُخفقون في الوصول إلى السلطة بالعنف، لأن التاريخ علمنا أن لا نفرح بمن يصل إلى السلطة بالعنف، ومن لا يعتبر بالتاريخ لا يحترم القرآن، والذي يحترم التاريخ ويقبل التحاكم اليه هو الذي يحترم القرآن. والدرس التاريخي الكبير في القرآن هو: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد ١٣/١٧].

والحمد لله رب العالمين.

الفصل السابع

حقوق الإنسان في الإسلام(*)

حقوق الإنسان وحقوق العباد:

موضوع بحثنا هو: حقوق الإنسان في الإسلام.

وهو موضوع جدير بالاهتمام، ويدل على مشكلة إنسانية، وربما كانت مشكلة دينية تختلف فيها وجهات النظر، فهناك من يمنع الإنسان حقوقه، وهناك من يدافع عن حقوق الإنسان، فما أصل هذه القصة؟ من أين جاءت كلمة حقوق الإنسان؟ ولماذا نضيف بعد ذلك كلمة (في الإسلام)؟

هل هذه الكلمة قرآنية، أم نبوية، أم فقهية؟

كلمة (حقوق الإنسان) ليست إسلامية ولا دينية، بل هي كلمة إنسانية بشرية، والكلمة الإسلامية المقابلة لهذا الموضوع هي (حقوق العباد).

وإن المناخ أو الجو الذي ولدت فيه كلمة (حقوق الإنسان) غير المناخ والجو الذي ولدت فيه كلمة (حقوق العباد).

فكلمة (حقوق الإنسان) غربية، وُجدت قبل قرنين من الزمان أي منذ قيام الثورة الفرنسية، أما كلمة (حقوق العباد) فهي كلمة إسلامية وجدت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً مع وجود التشريع الإسلامي، وقد ذكر الفقهاء حقوق العباد

(*) ـ قدم هذا البحث في محاضرة للمشاركين في الدورة الثانية للأئمة والخطباء والمدرسين الدينيين من البلدان الناطقة بغير العربية في مجمع أبي النور بدمشق، في يوم الخميس ٩/٦/١٩٩٤م.

مفصلة، معتمدين بذلك على القرآن والسنّة.

واختلاف منشأ هاتين الكلمتين يشير إلى اختلاف معنييهما، واختلاف المنطلق الذي تنطلقان منه، والهدف الذي ترميان إليه، والأسلوب الذي تتبعانه.

إن كلمة (حقوق العباد) حين تطلق في المناخ الإسلامي توحي بالحقوق التي ينبغي أن تؤدى لا الحقوق التي تؤخذ، أي أنها تبحث في الحقوق التي تجب علينا نحو الآخرين، لا الحقوق التي لنا نحن من الآخرين.

فحقوق العباد في الإسلام هي الواجبات التي علينا وليست الحقوق التي لنا.

إن لكلمة (حق) وجهين: حق لي، وحق علي، والإسلام والأنبياء في القرآن، بدؤوا بالحق الذي عليهم، و لم يبدؤوا بالحق الذي لهم. هذا هو منطلق الأنبياء ومنطلق الإسلام.

أما منطلق حقوق الإنسان، فهو الحق الذي للإنسان، وليس الحق الذي عليه، وهكذا فالطريقان مختلفان في مسارهما.

أرجو أن ننتبه إلى هذا الموضوع، لأن على الإنسان أن يرجع إلى ربه، وليس عليه شيء من حقوق العباد، وعليه أن يخشى من حقوق العباد كثيراً، لأنها موطن المشاحة وعدم التسامح، كما في حديث المفلس، الذي قال فيه النبي ﷺ لأصحابه: ((أتدرون ما المفلس))؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال رسول اللّه ﷺ: ((إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل

أن يقضى ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرِح في النار))(1).

لهذا كانت إشعاعات (حقوق العباد) منطلقة من الشعور بالواجبات التي على الإنسان أن يعملها تجاه الآخرين، وليس الحقوق التي له على الآخرين.

الاتجاه الغربي، ينطلق من الحق الذي لك والواجب الذي على الآخرين تجاهك، ويرى وجوب أخذ هذه الحقوق سواء باللين أو بالعنف، والغالب في المطالبة بالحقوق الاعتماد على سلوك سبيل العنف، فحقوق الإنسان مبنية على الدماء.

أداء الواجب والمطالبة بالحق:

من هنا يمكن أن أقول: هناك أسلوبان للحصول على الحقوق:

١ ـ الأسلوب الذي يعلّم الناس واجباتهم، وهو أسلوب الأنبياء.

٢ ـ الأسلوب الذي يعلّم الناس حقوقهم ويدعوهم إلى المطالبة بها، وهو أسلوب الحضارة الحديثة.

الأنبياء علموا الناس كيف يؤدون واجباتهم، وأخبروهم أنهم سيصلون بهذا الطريق إلى حقوقهم، وعلموا الناس أن من لم يصل إلى حقه في الدنيا، فإن حقه لن يضيع في الآخرة، ما دام قد أدّى واجباته على النحو الذي أمره اللّه به.

ولكنّ الذين يطالبون بالحقوق، لا يبالون باليوم الآخر، فهم كما قال اللّه تعالى عنهم: ﴿يَعْلَمونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياة الدُّنْيا، وَهُمْ عَنِ الأَخِرَةِ هُمْ غافِلونَ﴾ [الروم ٣٠/٧].

وأول من أشعرني بهذا الاختلاف في الأسلوب بين الحضارة الحديثة ومنهج

---

(١) ـ أخرجه مسلم عن أبي هريرة في البر والصلة، باب: تحريم الظلم (٢٥٨١)، والترمذي في صفة القيامة، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤١٨).

الأنبياء، هو الكاتب الإسلامي المعروف مالك بن نبي، وقد أعطى أهمية للفارق بين الأسلوبين: أسلوب البدء بالواجبات، وهو طريق الأنبياء ومن على منهجهم وأسلوب البدء بالمطالبة بالحقوق، وهو طريق الذين يرون حظهم في الدنيا فقط.

ومن الفروق بين الطريقتين أن الإسلام يتوجه إلى تعليم الناس أن يؤدوا واجباتهم لا أن يطالبوا بحقوقهم، فلكي يكون الحق حقاً ينبغي أن يبدأ الإنسان بأداء الواجب لا بالمطالبة بالحقوق، لذلك قال ﷺ: ((أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه))[1]، فعلى صاحب العمل أن يؤدي واجبه نحو العامل، ويعطيه أجره ولا يترك له فرصة للمطالبة بحقه.

أما في العالم الغربي فهم يعلّمون الناس المطالبة بالحقوق: حق العمال، حق المرأة، حق الإنسان...، ولا يعلّمونهم الواجبات، فإذا لم يكن هناك من يؤدي واجبه فمن أين يأتي حقك؟؟..

الحق لا يصل إليك إلا إذا أدّى الآخر واجبه، فإذا بدأنا بطريق أداء الواجبات فستتحقق حقوقنا، أما إذا لم نؤدّ واجباتنا، وانتظرنا حقوقنا، فإنها ستبتعد عنا كثيراً.

ومن جهة أخرى فإن طريق المطالبة بالحقوق يؤدي إلى التنازع، أما طريق أداء الواجبات فإنه يؤدي إلى التقارب، فيؤثر بعضهم بعضاً ويتسابقون في فعل الخيرات.

وفي هذا المجال يقول مالك بن نبي: ((نحن حينما نؤدي واجباتنا فإن حقوقنا

(١) ـ أخرجه ابن ماجه عن عبد اللّه بن عمر في الرهون، باب: أجر الأجراء (٢٤٤٣)، قال البوصيري: ((الإسنادضعيف... إلا أن أصل الحديث رواه البخاري في الصحيح من حديث أبي هريرة)).

ستأتي إلينا، إن لم تكن في الأرض فستنزل من السماء)).

ويُقال عن غاندي إنه لما دعي إلى مؤتمر حقوق الإنسان لم يذهب، بل أجابهم بقوله: ((إذا دعوتم إلى مؤتمر لبحث واجبات الإنسان ادعوني فسأحضر))، وأضاف: ((إن الناس إذا تعلموا أداء واجباتهم فستصل الحقوق إليهم)).

إذا لم يتعلم الناس أداء واجباتهم، فمن أين سيحصل الآخرون على حقوقهم؟ من الذي سيؤدي الحقوق؟

حرية الكلمة وحقوق الإنسان:

هناك نقطة مهمة أخرى، فالذين يطالبون بحرية الكلمة أو بحرية الرأي، ينبغي أن يسألوا: من الذي سيعطيك الحرية ومن الذي يملكها؟

لو دقّقنا النظر في منهج الأنبياء في القرآن، فإننا سنجد أنهم لم يطالبوا بحرية الرأي وحرية الدعوة، ولو قدموا طلباً بحقهم في ذلك لما مُنحوه، ولكنهم بدل أن يطالبوا بالحق قاموا بأداء واجب التبليغ، وواجب الدعوة، وتحملوا نتيجة عملهم وأدائهم للواجبات.

وهناك أمثلة كثيرة في القرآن تبين لنا منهج الأنبياء في هذا الموضوع، وسنعرض بعضاً منها:

يقول اللّه تعالى: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكيري بِآياتِ اللّهِ فَعَلى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرونِ﴾ [يونس ١٠/٧١].

فنوح عليه السلام كان يؤدي واجب الدعوة ويتحدّى ويتقبل عقوبة القيام

بحرية الرأي والجهر بأفكاره، ولم يكن يطالب الآخرين بالسماح أو بالاعتراف بحقه في أن يعبّر عن رأيه، بل يقول: إن لم يعجبكم مقامي وتذكيري بآيات اللـّه فأجمعوا أمركم، ومن دون تردد تعالوا إليّ، واقضوا عليّ ولا تنتظروا.

والقرآن مليء بقصص الأنبياء الذين بلّغوا رسالات اللـّه وتحملوا تبعاتها وقالوا: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمونا﴾ [ابرايهم ١٤/١٢]، ولكن لا نصبر على أن نترك الدعوة إلى اللـّه والتبليغ لرسالاته.

وحين قالوا لشعيب عليه السلام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذينَ آمَنوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعودُنَّ في مِلَّتِنا قالَ: أَوَ لَوْ كُنّا كارِهينَ؟ قَدِ افْتَرَيْنا عَلى اللـّه كَذِباً إِنْ عُدْنا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّانا اللـّه مِنْها وَما يَكونُ لَنا أَنْ نَعودَ فيها إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللـّه رَبُّنا وَسِعَ رَبّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلى اللـّه تَوَكَّلْنا رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفاتِحينَ﴾ [الأعراف ٧/٨٨-٨٩].

حتى إن رسولنا الكريم ﷺ حين جاءه عمه أبو طالب يقول له: لا تحمّلني ما لا طاقة لي به، قال له: ((يا عمّ لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره اللـّه أو أهلك دونه))[1].

فهو قد قام بواجبه وأدّاه، ولم يطالب بحقه في التعبير عن رأيه.

وقد اختلط الأمر في هذا الموضوع بين منهج الأنبياء في القرآن، ومنهج مخالفيهم، وهذا الاختلاط وقع لكثير من الكتّاب المسلمين.

فحقوق الإنسان التي وضعها البشر وشاعت منذ عهد الثورة الفرنسية، وتبنتها الدول ثم الأمم المتحدة إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، هذه الحقوق تجيز الأمم تقرير مصيرها، وتمنح الشعوب حق الثورة على الحكومات الظالمة،

---

(١) ـ السيرة النبوية: ابن كثير ج١ [ص٤٦٣ - ٤٦٤].

وتجيز استخدام العنف، أي أن للشعوب حق تقرير مصيرها، ولو بالعنف.

وأنا أرى أن ما جاء به الأنبياء، والأسلوب الذي سلكوه، هو الملائم للعقل والفطرة والواقع العملي.

تعامل الأنبياء مع القوانين الظالمة:

ويأتي السؤال هنا: كيف تعامل الأنبياء مع القوانين الظالمة؟.

هذه هي نقطة الخلاف الرئيسية بين منهج الأنبياء، وبين حقوق الإنسان العاليمة المعاصرة.

فأسلوب تعامل الأنبياء، كما هو واضح في القرآن، مع القوانين الظالمة أنهم كانوا يمتنعون عن طاعة القانون الظالم، ويقولون للذين يُصدرون الأوامر الظالمة: افعلوا بنا ما شئتم، فإننا لن ننفذ القانون الظالم، ومن جهة أخرى لن نخرج عليكم، ولن نقاتلكم، ولن نقتلكم، ولن نغدر بكم، ولكن يجب أن تعلموا أننا لن ننفّذ الظّلم الذي تأمرون به، ولا مانع من أن نطيع القانون الذي لا ظلم فيه.

والقرآن الكريم بدأ بهذا الأسلوب في الدعوة والعمل، ففي أول سورة نزلت من القرآن علّم اللّه المسلمين كيف يعصون القانون الظالم أو الأمر الخاطىء.

قال اللّه تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى﴾ [العلق ٩٦/٩-١٠] هذا مبدأ من مبادىء الإسلام الكبرى، لأن الصلاة كانت هي التعبير عن حرية الرأي والعبادة، وحين كان أبو بكر ﷺ يقف أمام داره ويصلّي بخشوع ويقرأ القرآن، كانت نساء قريش وفتيانها يجتمعون للاستماع إليه.

وكان هذا الإعلان للرأي وهذا العمل خطراً على قريش، وكانوا لذلك يريدون أن يمنعوا فاعله، يريدون ألا يخرج أبو بكر من بيته، وألا يُسمِعَ صوته للآخرين.

حدث هذا في الماضي، وربما لا زال يحدث إلى الآن، فكيف نواجه مثل هذا الأمر؟.

لقد علّمنا اللّه ماذا نفعل فقال في آخر سورة العلق: ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾ [العلق ٩٦/١٩]، صلّ وليقتلك وأنت تصلّي، ليقتلك وأنت متوجه إلى اللّه، ولا ترفع يدك، ويقول في موضع آخر: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [النساء ٤/٧٧].

فمواجهة القانون الظالم لا تكون بقتل الذي شرعه، بل تكون بعدم طاعته، إذ ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))[1]، إذا قال: لا تسجد، فقل: سأسجد وافعل ما شئت، اقتلني فسأكون سيّد الشُّهداء.

هذا واجب الإنسان المؤمن، ولا يجوز له أن يتهاون فيه، وإنـي أرى أنه عند هذه النقطة تولد الدولة والقانون والحكم في ضمير المؤمن.

ابحث عن كلمة (لا تطعه) في القرآن، وتتبّع ذلك، تجد أنك لا تحتاج إلى دولة ولا إلى حكومة إلا الحكومة التي تقيمها في نفسك أنت، وبهذا الالتزام تكون قد خرجت من شريعة الطاغوت، ودخلت في شريعة اللّه.

ولا شك أن البدء في تعليم المخالفة للقانون الظالم من الصلاة، تدريب على الرفض، تدريب على شريعة جديدة غير الشرائع البشرية التي تعلم الطاعة للإنسان، وتنفيذ الأوامر من غير تردّد أو اعتراض.

إن الذين يدينون بحقوق الإنسان لا يعطون للإنسان حق رفض الأوامر التي

---

(١) ـ أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود وغيره في الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٦٧٢٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٩ و١٨٤٠) وغيرهما.

تصدر عن السلطات، فالإنسان في هـذه الحالـة آلـة في يـد آمره، يتصرّف فيها حسب ما يريد، ويوم القيامة يقول: ﴿رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا﴾ [الأحزاب ٣٣/٦٧]، فهل يقبل اللّه منك هذا القول؟ إنه لا يقبله مطلقاً.

أما المؤمن الذي تعلّم مخالفة الأمر الظالم، فإنه يردُّ على الظالم الذي يقول لـه: احمل هذا السلاح وارم به هؤلاء الذين آمرك بقتلهم، يرد عليه قائلاً: إنني لست بندقية، إنني إنسان، البندقية هي التي تنطلق بحسب أوامر صاحبها، أما أنا فأنطلق بحسب أوامر خالقي.

هذا الأسلوب الذي يعلّم الناس الصدق والأمانة والصراحة، هو الذي يُنشىء الحكم الشرعي، ويكوّن أسس الشرعية الصحيحة لإقامة دولة المجتمع، بعد أن أقام في نفسه دولة الواجبات.

إنني أشعر براحة وإيمان ويقين، من التعامل مع الواقع، فاللّه تعالى قال: ﴿وَعَدَ اللّه الَّذينَ آمَنوا مِنْكُمْ وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الَّذي ارْتَضى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ [النور ٢٤/٥٥].

فالوعد حق ويقين، وسيكشف المسلمون هذه الحقيقة مرة أخرى، وأنا مطمئن إلى ذلك بحمد اللّه، ولكن الذي يجعلني أهتم بهذا الموضوع، أن كثيراً من الذين يكتبون في حقوق الإنسان في الإسلام يخلطون منهج الأنبياء بحقوق الإنسان في دول العالم، وينتج عن هذا الخلط تشويه للمنهج النبوي والذي يزيدهم جرأة على هذا، ما هو شائع من إعلاء شأن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

حقوق أم ضرورات وواجبات:

وسأذكر على سبيل المثال كتاب: (الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات.. لا حقوق) كتب هذا الكتاب أحد الدعاة الذين يريدون نصرة الإسلام بكل ما أوتوا من قوة، وهو الدكتور محمد عمارة.

الكتاب نُشر في سلسلة (عالم المعرفة) رقم (٨٩) في أيار عام ١٩٨٥، وهذه السلسلة ذائعة الشهرة في العالم العربي، ولا يطبع كتاب مثل كتب هذه السلسلة، إذ يُطبع منه في الطبعة الأولى أربعون ألف نسخة، مما يحقق انتشاراً واسعاً.

والذي يجعلني أعرض هذا الموضوع من خلال هذا الكتاب هو أن هذا الكتاب يحتوي على أشياء نافعة جداً، وإذا استعرضنا الفهرس نجد أنه انتبه انتباهاً جيداً إلى أن الحق معناه في الإسلام الفرض والواجب، وليس الأجر الذي نأخذه، وهذا ما قرره في مقدمة الكتاب ويُشكر على هذا.

بعد ذلك، بحث في العناوين الستة اللاحقة، فبدل أن يقول: حق الحرية أو: من حقوق الإنسان الحريّة، يقول: واجبٌ، ضروراتٌ، واجباتٌ وليست مجرد حقوق، فهو قد غيّر كلمة الحق إلى كلمة ضرورة وواجب.

فقال: ضرورة ـ واجب الشورى، استناداً لقول اللّه تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران ٣/١٥٩].

ويقول: ضرورة ـ واجب العدل، استناداً لقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء ٤/٥٨]، و﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل ١٦/٩٠].

ضرورة ـ واجب العلم.

ضرورة ـ واجب الاشتغال بالشؤون العامة: أي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والاهتمام بأمر المسلمين، فـ ((من لم يهتم للمسلمين عامة فليس منهم))[1]. ﴿وَتَعَاوَنوا عَلى الْبِرِّ والتَّقوى﴾ [المائدة ٢/٥].

ضرورة ـ واجب المعارضة، وهذا عنوان جديد في الفكر الإسلامي، ثم ذكر عنواناً آخر، ضرورة ـ واجب المعارضة المنظمة.

ثم وضع عنواناً أخيراً وهو: شبهات علماء السوء أو علماء السلطان.

من هم علماء السوء عند الكاتب؟ هذا الذي يهمني بحثه، وأنا لا أريد أن أدافع عن نفسي، ولا عن علماء معينين، ولكن أريد أن أبحث عن جواب السؤال التالي: هل أوجب الشرع الإسلامي على المسلمين أن يخرجوا بالسيف على الحاكم الظالم أم منعهم من ذلك؟ وما هو البديل عن ذلك؟.

يقول الدكتور عمارة: ((والآن لننظر بعين الدراية إلى الأحاديث التي يستند إليها هذا النفر من علماء السوء في ادعائهم وجوب طاعة المحكوم للحكام في العدل والظلم كليهما، وفي ادعائهم تحريم المعارضة على المسلمين لحكامهم وخاصة إذا كانت هذه المعارضة جماعية، ومسلحة بسلاح التنظيم... ودعواهم أن مذهبهم هذا هو حقيقة الفكر السياسي للإسلام))[2].

ثم يقول: ((وإذا جاز الصبر على الظلم عند العجز عن مقاومته... وإذا كانت (الطاعة) واردة للأمراء الذين يمنعون الرعية حقوقها، فلذلك ضوابط تمنع

---

(١) ـ أخرجه الحاكم عن حذيفة في الرقاق (٣١٧/٤). قال الذهبي: إسحاق عَدَم ـ يعني أحد الرواة ـ وأحسب الخبر موضوعاً.

(٢) ـ الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق، /١٢٤.

الإطلاق، وتجعل الهيمنة للنصوص المتسقة مع روح الشريعة... مثل أن تكون الحقوق الممنوعة، خاصة بالمطيع وحده، وفي حالة ما إذا كانت المقاومة مستحيلة، أو مفضية إلى شر محقق يفوق الشر المتمثل في منع الحقوق))[1].

إن هذا النص وهذا الفهم للشريعة بهذا الشكل هو مصدر كل البلايا في العالم الإسلامي.

ولأجل أن تتضح الأمور أكثر، هناك فرق بين من يرى أن صنع الحكم في الشريعة الإسلامية يجوز أن يكون بالعنف إذا كانت العملية ناجحة أو لا تفضي إلى شر محقق يفوق الشر المتمثّل في منع الحقوق، وبين من يرى أن صنع الحكم بالعنف في الشريعة الإسلامية لا يجوز مطلقاً، وليس مبدأ من مبادىء الإسلام.

وأقول: إن الحكم الذي يأتي بالعنف لا يكون راشداً، وإنما غياً وبغياً ولا يريد الإسلام أن يصنع حكماً غياً وبغياً، وهذا هو السبب فيما أرى في عدم إطلاق اسم الرشد على أحد من حكام المسلمين بعد الخلفاء الراشدين، وكان سبب رشدهم أنهم لم يأخذوا الحكم بالعنف، و لم يجعلوه ميراثاً لأبنائهم.

هذا هو الحكم الراشد في الإسلام، والذين يريدون أن يصلوا إلى الرشد بسلوك طريق الغي والبغي يخطئون في الفهم، لأن الغي والبغي لا يمكن أن يوصل إلى الرشد.

ثم إن القول بجواز استخدام العنف للوصول إلى الحكم ليس قولاً جديداً معاصراً، فقد ظهر في القرون الأولى في أفكار بعض الفرق، كالخوارج والمعتزلة الذين كان من رأيهم وجوب مقاتلة الحكام ومعارضتهم وانتزاع السلطة منهم بالقوة، ولكن هل هذا هو الإسلام؟

---

(١) ـ المرجع السابق /١٢٦.

والآن أريد أن أسأل الدكتور محمد عمارة وكل الذين يؤيدونه ويأخذون بمثل رأيه، أليس الحكم الذي وصلتم إليه هو نفسه الذي وصل إليه الخوارج والمعتزلة؟ فما الفرق إذن بينكم وبينهم؟!!.

إن الخروج على الحاكم - مهما كان ظالماً - ليس من مبدأ الإسلام وإنما الإسلام ألا تطيع الحاكم الظالم في الأمر الظالم الذي يصدره، وهذا الأسلوب هو الأسلوب الإسلامي النبوي، والشرعي، والواقعي، الذي يجرّد الحاكم الظالم من سلطانه بأسلوب غير مبني على الغي والبغي بل على قوله تعالى: ﴿لا تُطِعْهُ﴾ [العلق ٩٦/١٩]، وهو لم يقل اقتله أو قاتله.

فإذا كان الذي يأخذ بهذا الرأي رأي ﴿لا تُطِعْهُ واسْجُدْ﴾، ولا تقاتله ولا تقتله، إذا كان يسمّى عند بعضهم واحداً من (علماء السوء) أو من (علماء السلطان) فاشهدوا أني منهم، ولست من الخوارج الذين إذا ظنّوا أنهم سينجحون قاتلوا وخرجوا وإلا انتظروا.

عند هذه النقطة تحول المسلمون بعد عهد الراشدين - إلا من رحم ربك - إلى مذهب الخوارج، ولا زالوا يعيشون في قتال مستمر بين بغاة وخوارج، ونحن نسعى لإعادة الرشد بالرشد، ونرى أنه من المستحيل إعادة الرشد بالغّي والبغي، والدليل على ذلك، إخفاق المسلمين في الوصول إلى الحكم الراشد بسبب اعتمادهم على القوة والعنف.

ضوابط استخدام القوة:

وإني في هذا الموضوع، لا أنفي استخدام السيف، ولكن أقول: هناك مواطن يجوز فيها استخدام السيف والقتال، ومواطن لا يجوز فيها ذلك.

فالسيف الجائز استخدامه، والقتال الجائز في الإسلام، هو الذي يحقق

شرطين: شرطاً في المجاهِد، وشرطاً في المجاهَد.

أما شرط المجاهِد فهو أن يكون حكمه شرعياً، أي وصل إلى الحكم برضا المسلمين، مثل الخلفاء الراشدين، فالحكم الراشد هو الذي يكون استخدامه للسيف راشداً.

وأما شرط المجاهَد فهو أن يعتدي ويقتل الآخرين ويكرههم على الدين، فيأتي الحكم الراشد فيقاتله لأجل حرية الدين، لا لأجل أفكاره... والدليل على ذلك قول اللّه تعالى: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللّه عَنِ الّذينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ في الدّينِ وَلَمْ يُخْرِجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبرّوهُمْ وَتُقْسِطوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة ٦٠/٨]، ﴿فإِنِ اعْتَزَلوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيَكُمْ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللّه لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبيلاً﴾ [النساء ٤/٩٠].

وهذا السيف الراشد مفقود في عالمنا الإسلامي منذ ذلك التاريخ.

إذن: فما هو السيف الموجود؟ إنه سيف البغاة الذين لم يحاولوا إعادة الرُّشد بالرُّشد الذي سنه الرسول ﷺ، ومارسه الخلفاء الراشدون.

فالكل يفقد الرشد والشرعية الأساسية، ونحن، المسلمين المساكين، لا نفعل شيئاً غير المفاضلة بين البغاة، ونقول: هذا الباغي أفضل من هذا.

وبناء على ما سبق ينبغي ألا نتجنّد في قتال البغاة بعضهم بعضاً، ولا نتّبع الدعوات التي تريد أن تجنّد الشباب المؤمن المتشوق إلى طاعة اللّه وإلى الجنّة وإلى الشهادة، من غير أن يعلموا أن الذي يدعوهم إلى هذا إنما يقودهم ليكونوا وقوداً في حرب غير إسلامية.

بل علينا أن نفهم إسلامنا وديننا، وأن نعلّم جلساءنا في المستقبل الشرعية والرشد، وأن نجتهد لإعادة الرشد بالكفاح النبوي من خلال الدعوة إلى الحق.

والعصر الذي نعيش فيه يفرض علينا هذا، فأسلوب البغاة لم يعد يحل مشكلة العالم الإسلامي، والإسلام لا يعالج الخطأ بالخطأ، وإنما يعالج الخطأ بالصواب.

انتهاء عصر القتال:

وإذا نفع القتال فيما سبق من الزمان في حل المشكلات فإن عالمنا المعاصروصل إلى مرحلة عجيبة، لا يمكن أن نصل فيها إلى حلّ المشكلات بالعنف سواء في عالم الكبار أم في عالم الصغار.

فالكبار وصلوا إلى درجة أنهم يستطيعون أن يدمروا الأرض، ولهذا فهم لا يحلون المشكلات فيما بينهم بالقوة، بل يسقط من يسقط بغير حرب ويرتفع من يرتفع بغير حرب أيضاً.

أما إذا دخلنا نحن، الصغار، في حرب فلن ينتصر طرف على طرف، لذلك حتى إذا هجم علينا أخونا الآخر، فينبغي ألا نرد عليه، لأننا رأينا حروباً مثل حرب الخليج الأولى (العراق وإيران)، استمر الإخوة يتقاتلون فيها، وكانت النتيجة أن أعداءنا هم الذين ربحوا، وهم الذين نصروا من أرادوا له أن ينتصر، ثم قتلوا المنتصر أيضاً، افهموا هذه الأمور..

والآن في اليمن، يمدون هذا، ويمدون هذا، وبواسطة إخوانهم، فما هي نتائج هذه الحروب، إذا كان العدو ينصر من هو أنفع له؟ أَبَعْدَ ذلك نشجع شباب الإسلام لأجل أن يتجنّدوا في مثل هذه الأعمال، ونقول إن علماء السوء هم الذين يقولون لا تتجنّدوا في مثل هذه الأعمال؟! نشجعهم على ذلك بدل أن ندعوهم إلى البدء بتعلم دينهم وواقعهم؟!..

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وألهمنا رشدنا لنبشر بالرُّشد في الحكم، وبالرشد في إنشاء الحكم الراشد.

وكما ينبغي أن نحرم استعمال القتال لحل المشكلات الإسلامية، وأن ندعو إلى عدم جواز مشاركة ومعاونة المتقاتلين من المسلمين، علينا أن نذكرهم بواجبهم في الدعوة إلى الرُّشد.

ألا وليعلم الذين يرفضون أسلوب الرشد، ويفضلون صنع الرشد بالغي أنه سيتبين لهم عاجلاً أو آجلاً، أنهم مخطئون، وهذا التاريخ شاهد على ذلك.

فالعالم الغربي الذي صنع حربين عالميتين، ترك الحرب، وراح الغربيون يتفاهمون فيما بينهم بحيث لا يخسر أحد منهم شيئاً، لا مالاً ولا أرضاً ولا مُلكاً، ويربح الجميع.

وهذا الشيء ممكن في العالم الإسلامي، بأن نقر للجميع بأرضهم ومُلكهم وأموالهم، ونتعاون على ألا يخسر أحد منا شيئاً، ويربح الجميع، هذا ممكن وهو ما ندعو إليه ونبشّر الناس به، فذلك أزكى وأطهر وأقرب إلى مراد اللّه للمسلمين، فإنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، ويأمرهم بالتعاون على البرّ والتقوى، وأن يدخلوا في السلم كافّة.

نحن ندعو إلى أن يتعلم الإنسان واجباته نحو اللّه، ونحو عباده، لا أن نقعد ونطالب بحقوقنا، فإن اللّه وعدنا، إن نحن قمنا بأداء الواجبات التي علينا، أن يمكّن لنا في الأرض ويستخلفنا فيها، ويبدّلنا من بعد خوفنا أمناً.

نحن نؤدّي حقوق العباد وكلنا ثقة بأن اللّه لا يخلف وعده..

اللّهم أعنّا على أداء الواجبات، وإن كنت أخطأت فهذا مني ويرجع إلي، وإن كنت أصبت فبفضل اللّه، واللّه أسأل أن يخرج من المسلمين من يفقههم في دينهم ويلهمهم رشدهم ليحلوا مشكلاتهم بالتفاهم والتعاون، ويؤدوا واجباتهم كي تصل إليهم حقوقهم.

الأسئلة والمداخلات

السؤال الأول:

من محمد علاء الدين ـ الشيشان:

ما تقول في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلوا الْمُشْرِكينَ كافَةً كَما يُقاتِلونَكُمْ كافَّةً﴾ [التوبة ٣٦/٩]. وأنت قلت: قل رأيك، وإذا مُنعت فلا تقتل من منعك، بل قل له: سأقول رأيي فاقتلني أنت ولن أقتلك؟

الجواب:

ينبغي أن نميز بين طرفين في التعامل، تعامل المسلمين مع بعضهم وفيما بينهم، وتعامل المسلمين مع غيرهم من المشركين.

ففي النقطة الأولى، ينبغي أن نعلم كيف نتعامل مع المسلمين، وكان هذا هو موضوع بحثنا، وقولنا بألا نقتل من يمنعنا من إبداء رأينا.

أما في النقطة الثانية، التعامل مع غير المسلمين، إذا توفرت له شروطه والإمكانات اللازمة والاستعداد التام، وبدؤونا بالقتال فيجب أن نقاتلهم كافة.

وأقول بصراحة وبوضوح إذا حَلَلْنا مشكلاتنا التي بين المسلمين، فإن المشكلات التي بيننا وبين أعدائنا لن تستعصي على الحل، لأن المشكلات التي بيننا أخطر من المشكلات التي بيننا وبين أعدائنا.

فعلينا أن نتبع قول اللّه تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا ادْخُلوا في السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبعوا خُطواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدوٌّ مُبينٌ﴾ [البقرة ٢٠٨/٢]، وعلينا أن

نتعاون على البرّ والتقوى.

وأنا أرجو أن نحل مشكلاتنا مع بعضنا قبل أن نحل مشكلاتنا مع أعدائنا، وأن نصنع السلام فيما بيننا قبل أن نصنع السلام مع غيرنا، إذ إنه بعد أن نصنع السلام مع أنفسنا وإخواننا، فإن السلام الذي نصنعه مع الآخرين يكون أجمل وأقسط عند اللّه، وأنجح لنا أيضاً.

السؤال الثاني:

من نوح سيادا ـ ألبانيا:

هل الأفضل للداعي أن يقوم بدعوته ويعلن رأيه بحريّة ولو أدّى ذلك إلى منعه أو قتله أو انتهاء دعوته، أم الأفضل أن يعمل بالدعوة في الوقت المناسب ليضمن استمرار دعوته في سبيل اللّه؟

الجواب:

اللّه تعالى أعطانا الخيار و لم يفرض علينا أن ندعو حتى نموت، فقد سمح لنا أيضاً إذا أراد العدو أن يقتلنا أن نُظهر غير الذي نعتقده، وهذا واضح من النص ومن سبب نزوله وهو قوله تعالى: ﴿إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمانِ﴾ [النحل ١٠٦/١٦] فلا حرج أن يظهر لهم غير ذلك إذا كان متأكداً أنه سيُقتل.

ولكن يجب أن تتنبهوا، فأحياناً يختلط المكْرَه بالمسارع لهم، ﴿فَتَرى الَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعونَ فيهِمْ، يَقولونَ: نَخْشى أَنْ تُصيبَنا دَائِرةٌ﴾ [المائدة ٥٢/٥].

فالأمر يرجع إلى الشخص ذاته، وإلى تقديره الخاص.

السؤال الثالث:

من محمد رسول بن مختار ـ داغستان:

ما هو المطلوب من الداعية المسلم الذي يقيم في أوربا، ماذا يتعلم؟ وكيف يتعامل مع المسلمين وغير المسلمين؟

الجواب:

هناك قواعد إسلامية عامة في أسلوب التعامل وطريقته، يقول اللّه تعالى: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللّه عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ في الدّينِ وَلَمْ يُخْرِجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرّوهُمْ وَتُقْسِطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّه يُحِبُّ الْمُقْسِطينَ﴾ [الممتحنة ٦٠/٨]، هذه قاعدة كبرى، والقاعدة الأخرى: الدفع بالتي هي أحسن، إذ هو الذي يحبب الناس بالإسلام، فلاتكن فظاً غليظاً هناك، وأحسن بحيث إذا رأوك يرون فيك الإنسان المحسن إلى الناس، يقول اللّه تعالى: ﴿وَ لا تَسْتَوي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت ٤١/٣٤].

أما التعامل مع المسلمين، فلا شك أن المسلمين يجب أن يكونوا رحماء فيما بينهم، وفوق ذلك علينا أن نتقبل من المسلمين أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم.

السؤال الرابع:

من لي تيغن شيان ـ الصين:

قال رجل لرسول اللّه ﷺ: يا رسول اللّه! أرأيت رجلاً يريد أخذ مالي، قال رسول اللّه ﷺ: ((لا تعطه مالك، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله، قال:

النار))[1].

فكيف نوفق بين هذا الحديث، وبين المسالمة والسلم؟

إن اللّص السارق هو المقصود في هذا الحديث.

السؤال الخامس:

من محمد جليلو ـ الداغستان:

ما رأيك بالأزمة المؤلمة التي تجري الآن في الجزائر، وما حلّها؟

الجواب:

إن مقاومة الجزائريين تعتبر من وجهة نظر العالم الغربي جائزة على أساس حقوق الإنسان إذ إنَّ السلطات منعت المسلمين من حقهم في الانتخابات.

أما من وجهة النظر الإسلامية فأقول: نحن لا نبدأ بالقتال، ومن جهة أخرى لا ننفذ المنكر، ونطيع في المعروف، وهذا الطريق يؤدي إلى تغيير المجتمع، فليس كل شيء يؤخذ بالعنف.

وإنني أشعر أن الجزائريين الثوار الشباب المؤمن إذا قامت لهم دولة فإنهم سيتقاتلون مع بعضهم مثلما يتقاتل الأفغان الآن، لأنهم لا يسمحون للآخر أن يخالفهم.

السؤال السادس:

من يانش شنكريف ـ بشكيريا:

(١) ـ مسلم الإيمان، باب: الدليل على أن قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم، رقم (١٤٠)، وكذا البيهقي في سننه: ٣/٢٦٦، و: ٨/٣٣٦.

هل هؤلاء الذين يتقاتلون ـ المسلمون مع بعضهم ـ يدخلون في حديث رسول اللّه ﷺ ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار))[1]؟

الجواب:

نحن لا نقول إنهم في النار، لأن الذي يُدخل النار هو رب العباد، ولكن نقول: إنهم أخطؤوا في الدنيا وحسابهم على اللّه يوم القيامة.

ونسأل اللّه أن يغفر لهم جميعاً، وأن يردنا إلى ديننا وأن ندخل في السلم كافة.

السؤال السابع:

من مراد كبكييف ـ قرشاي:

كيف نستطيع تطبيق حقوق العباد بيننا، ونحن نرى اليوم المسلمين يضرب بعضهم بعضاً، حتى في الأسرة الواحدة تُفقد الحقوق؟

الجواب:

المطلوب منك أن تبدأ بحقوق العباد وتترك الأمر بعد ذلك يسير، وسيسير نحو الوصول إلى الحق، هذا ما كان يفعله رسول اللّه ﷺ، البدء بالواجبات.

عليك أن تتعامل مع الناس كما يأمرك اللّه، باللطف والإحسان، وتدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجادل بالتي هي أحسن من غير إساءة إليهم ولا سب ولا شتيمة.

---

(١) ـ أخرجه البخاري عن أبي بكرة في الإيمان، باب: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) رقم (٣١)، وفي كتب وأبواب أخرى، ومسلم في الفتن، باب: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما رقم (٢٨٨٨)، وغيرهما.

وينبغي أن نصبر ولا نمل ما دمنا نؤدي الواجبات، وسنرى نتيجة ذلك، ولا شكّ بأن اللّه لم يخدعنا و لم يكذب علينا، حاشاه وهو القائل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإذا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت ٣٤/٤١]، ثم قال: ﴿وَما يُلَقّاها إلاّ الّذينَ صَبَروا وَما يُلَقّاها إلاّ ذو حَظٍّ عَظيمٍ﴾ [فصلت ٣٥/٤١].

السؤال الثامن:

من سيد مورتازلي ـ الشيشان:

هناك من يقول: إن الأمة لا تصلح إلا بما صلح عليه أولها، ويقصد بالسيف، وهناك من يقول عكس ذلك، فما هو الصحيح؟

الجواب:

ليس السيف هو الذي صنع الإسلام، إن الإسلام هو الذي صنع السيف الذي لا يرتفع على مظلوم، وإنما يرتفع على الظالم فقط بشروطه.

انتبهوا: إن الإسلام لم يأت بالسيف، وإنما صنع السيف الذي لا يَظلم ولا يَرتفع على أحد بالباطل، وهذا ناتج عن التقوى والدعوة والصبر، فأرجو أن تدركوا هذه الحقيقة.

السؤال التاسع:

من علي سيدي ـ تركيا:

ذكرت في حديثك أن ظاهرة فرض الرأي بالقوة لم تظهر في عصرنا هذا فقط، بل كانت قديمة متمثلة بالخوارج والمعتزلة، وإن كان الأمر كذلك، فما هو وجه التشابه والاختلاف بين الخوارج ومن يسمون اليوم، في المصطلح

الغربي، بالأصوليين؟ وهل كانت عقيدة الخوارج صحيحة حتى يدعى إليها بالقوة؟

الجواب:

عقيدة الخوارج من حيث إيمانهم باللّه واليوم الآخر صحيحة، ولهذا لما سُئل أمير المؤمنين علي ﷺ عن الخوارج، هل هم كفرة؟ قال: لا، من الكفر فرّوا، قالوا له: هل هم منافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون اللّه إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون اللّه كثيراً.

إذن: إن الذي قاموا به، ناتج عن جهل وعدم معرفة بالدين، فهم كانوا مخلصين، متقين، طيبين، مجاهدين، ولكنهم مخطئون، وقد وصفهم الرسول ﷺ ضمن إخباره بالمغيبات فقال: ((يخرج فيكم قومٌ تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية))[1].

وأما عن المعتزلة: فهناك بعض المسلمين في الوقت الحاضر يقولون عن المعتزلة إنهم هم العقلانيون وأصحاب الرأي، ولكن المعتزلة هم الذين كانوا يجلدون الإمام أحمد بن حنبل حتى يقول بأن القرآن مخلوق، هل هذه حرية رأي؟

إذن: فالخوارج والمعتزلة ليس عندهم حرية رأي، هذه الحقيقة واضحة، ولكننا نعيش في ظلمات، وفي فتن كقطع الليل المظلم، وكلنا الآن مثل

---

(١) ـ أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري في فضائل القرآن، باب: إثم من راءى بقراءة القرآن...، رقم (٤٧٧١)، ومسلم في الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤)، وغيرهما.

الخوارج والمعتزلة!!..

اللَّهم أحسن خلاصنا من هذه المفاهيم الخاطئة، ونقول: إن الذين أخطؤوا أمرهم إلى اللَّه، هو الذي سيحاسبهم ولسنا نحن.

والحمد لله ربِّ العالمين

الفصل الثامن

السيف والقانون(*)

العلاقة بين القوة والدعوة والفكر!

ليس في العالم الإسلامي بل في الحياة الاجتماعية الإنسانية، فالناس الآن وحتى العرب الجاهليون كانوا يظنون أن القوة هي التي تحمي الدعوة، لكننا حين ننظر إلى الموضوع جيداً فإننا نجد أن الشريعة هي التي ينبغي أن تلجم (تحبس) القوة، وأن القوة إن استخدمت لمجرد تصور النجاح فقط، صارت الأفضلية أو السلطان لها. نريد أن نفكر في الموضوع فلسفياً: حين نجيز للقوة أن تُحق الحق.. فصحيح أنها تفعل، لكن يكون السلطان قد صار للقوة وهذا ما لا يدرك خطورته الناس.. إذا كان القوي هو الذي يصير له الحق في الموضوع، فإن الشريعة لم تعد هي التي تحكم، وإنما القوة هي التي تحكم. الموضوع في غاية الدقة. وقد عبر عنه ابن تيمية حين قال: ((إما أن يكون الكتاب فوق السيف أو السيف فوق الكتاب)) هل تلجأ إلى السيف فيكون هو الذي يحيي الكتاب، أو أن الكتاب هو الذي يصنع السيف ويربطه فلا يتحرك إلا بإذنه؟! فرق كبير بين الأمرين.. بعض الناس يظنون أنهم يستخدمون السيف ليحمي الكتاب، لكن من الناحية الشرعية: الكتاب هو الذي يجب أن يحمي السيف حتى لا يطغى، لأن السيف لا يقف عند حد حين ينطلق. السيف ينبغي أن يمشي في كنف الكتاب فإن أراد أن يضغط عليه ينضغط، وإن أراد أن يرتفع رُفِع، هذا الذي نريده، وهذه نقطة هامة ولذلك نحاول أن نطبق الوقائع عليها.

(*) - كتب هذا البحث عام ١٩٨٧ م.

الرسول ﷺ كان يريد أن يكون الكتاب هو الذي يحكم السيف أو بالمعنى الحضاري: القانون هو الذي يحكم السيف، بحيث لا يتحرك إلا بالقانون، لأنه حين يتحرك فوق الكتاب يصبح خطيراً، نحن نعيش هذه المشكلة، ولكن ربما ى الذين عاشوا في الغرب الآن أن القوي لا يستطيع أن يفعل شيئاً هناك، لأن القانون صار فوق السيف؛ بينما نحن السيف عندنا فوق القانون، وبين الأمرين فارق كبير وخطير، حينما يقوى السيف لا يعود يبالي بالكتاب. وأستطيع أن أتصور الآن أن الوضع الذي أوجده معاوية صار فيه السيف فوق الكتاب ومنذ ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا بقي الكتاب صغيراً تحت قهر السيف، ولهذا تحدث الانقلابات دائماً. ثم أنت حين تبيح لنفسك أن تلجأ للسيف لتحق الحق أتحب للآخر أن يلجأ إلى هذه الطريقة أيضاً... أتبيح لغيرك ما أبحته لنفسك؟؟!

القانون والقوة:

أنت تتصور أنك ستمشي جيداً وستستخدم القوة لتجعل الشريعة هي التي تحكم، بالسيف سأمسك ثم أُخضع السيف للقانون، هكذا سنتصور نحن أيضاً..

إن هذا الموضوع لم يطرح جيداً إلى الآن، وحتى القانونيون والحقوقيون لا يطرحونه أيضاً.. في بلادنا أي سلطان يصبح فوق القانون بينما في بلد آخر السلطان يخاف فهو ممسوك بالقانون.. من أين يأتي الفرق؟!

الفرق يأتي من كون القوة محكومة بالقانون أو بالعكس، في بلادنا نعيش حتى الآن فكرة العشائرية، فكرة السلطان، وحينما يحدث تغيير في السلطان، فكلهم يشعرون أن أصحاب السلطان يأتون بأقاربهم، بل حتى رئيس المخفر في أي قرية يصبح المقربون إليه فوق القانون. هذا تدركونه جيداً في البلاد العربية الديمقراطية والإسلامية والاشتراكية، فهذه الأسماء ليس لها أي دور، ليس هناك فرق، وسلطان السيف هو الذي يمشي، سواء كان تقدمياً أم إسلامياً أو

ملكياً، كلهم مثل بعضهم بدرجات متفاوتة طبعا، لأنه ما من مجتمع يعيش من دون قانون ولكن يتفاوتون في عدد الذين يستطيعون أن يصيروا فوق القانون، والمسائل التي يمكن أن تصير فوق القانون، وربما في بلادنا القانون ضعيف جداً حين تأتي القوة، ولهذا قال الرسول ﷺ: ((إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد))[1] يعني أن القانون لا يسري على الأقوياء، وإنما على الضعفاء، وينبغي أن نعلم أن أي مجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعاً إلا بقانون، وكلما كان عدد الذين يتجاوزون القانون أكثر، فإن هذا يدل على عدم تحضر المجتمع، وهذا واضح فلمجرد أن إنساناً ينتمي إلى جماعة معينة أو يشغل وظيفة معينة يصبح فوق القانون عندها يصبح القانون مخروقاً.

ينبغي أن نبحث في علاقة القانون بالقوة، وإمكانية القفز فوقه، وكلما كان المجتمع مبنياً على أساس عدم تجاوز القانون فإننا نقول: إنه مجتمع متقدم، والرسول ﷺ تمثل هذا في سلوكه مع صحابته ومع الناس فقال: ((لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[2]، وفي إحدى الغزوات أصاب طرف سهمه أحدهم فقال له: أوجعتني يا رسول الله، فكشف ﷺ عن جسده وقال له: ((اقتص))، وقبيل وفاته قال: ((من ضربت ظهره فهذا ظهري فليقتدمني قبل أن

---

(١) ـ أخرجه البخاري في الحدود، باب: إقامة الحدود على الشريف والوضيع (٦٤٠٥) وفي كتب وأبواب أخرى، ومسلم في الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، رقم (١٦٨٨). وغيرهما.

(٢) ـ أخرجه البخاري في الحدود، باب: إقامة الحدود على الشريف والوضيع، رقم (٦٤٠٥)، ومسلم في الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، رقم (١٦٨٨)، وغيرهما.

يأتي يوم القيامة))[1]، هذا النوع من التصور للمفهوم وجعل القانون فوق القوة هو نموذج القوة المحمية بالقانون، والمجتمعات المتحضرة تحمي السيف بالقانون كي لا يفلت، بينما نحن نريد أن نحمي القانون بالسيف، وكثيراً ما نخطىء في النظر، فقد ظن الناس لفترة طويلة أن الشمس هي التي تدور حولنا، ولكن تبين العكس، والذين ظنوا أن القانون هو الذي يحتاج إلى حماية من السيف لم يدركوا أن القانون ليس هو الذي يطغى وأننا نخشى من السيف أن يطغى، وهذا ما حصل في التاريخ وهذا ما نعيشه الآن وتعيشه المجتمعات الأخرى، مثلاً في العالم الغربي نشعر أن الدرجات متفاوتة في إمكانية النفاذ والانفلات من القانون، مثل التهرب من الضرائب، يقولون: إن أصحاب السيارات الفخمة والأغنياء تكتب المخالفات عليهم أقل، بينما الذي تقع عليه الشباك يكون من أصحاب السيارات القديمة وغير الفخمة، هؤلاء يتجرأ عليهم الشرطي، مع الفارق الكبير بيننا وبينهم، فإنهم يقعون في شيء من ذلك وهو أن القانون يرتبك أمام بعض ذوي القوة والنفوذ. فعلينا أن نرسخ مفهوم الالتزام بالقانون، لأن الإنسان الذي يعيش في مجتمع يسوده القانون يعيش مطمئناً، أما إذا كان يعيش في مجتمع القانون فيه يمكن أن يتجاوز فإنه لن يشعر بالأمان، لأن حقه يمكن أن يضيع ويمكن أن يصيبه الأذى دون أن يكون مرتكباً لذنب. ويمكن أن تجرى إحصائيات دقيقة لمعرفة مقدار التفاوت في الدرجات بين المجتمعات، وطبعاً الزعماء الموجودون في العالم الإسلامي لاحد لزعامتهم، وليس هناك قانون ينهي زعامتهم، وإن كانوا يجعلون لها مدة من الزمان. ليس المهم أن يتغير الذي فوق القانون، ولكن الذي يجب تغييره هو موضوع الفوقية والسيادة بحيث تكون للقانون بدلاً من أن تكون

---

(١) - قال في مجمع الزوائد (٢٦/٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى بنحوه، وفي إسناد أبي يعلى عطاء بن مسلم وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة، وبقية رجال أبي يعلى ثقات، وفي إسناد الطبراني من لم أعرفهم.

للقوة، هذا بحسب تصوري الساذج، وأنا أتصوره من جوانب عدة، إذ بمجرد أن تلجأ إلى القوة لتضع أناساً مكان أناس فوق القانون فإنك لا تكون قد صنعت شيئاً، إلا أنك غيرت الذي فوق القانون، لذلك كل الأحداث التي تجري في عالمنا عبارة عن تغيير للناس الذين يتربعون فوق القانون، لا أن القانون يأتي ليلغي فوقية الناس جميعاً.

العدالة بين السيف والقانون:

الإسلاميون يتصورون أنهم إن كانوا فوق القانون فإن العدالة ستتحقق، لأنهم يستخدمون القوة للعدالة، وهذه مغالطة كبيرة للذات وأنا أشبه الموضوع بكرسي الاعتراف، فالذي يجلس عليه يجب ألا يخفي شيئاً.. أحدهم كان جالساً عليه ولكن بقيت بعض الأشياء لم يعترف بها، وحين سئل بعض الأسئلة المحرجة عنها، قال: أظن أن هذا الكرسي لا يُسمِعْ. انظر أنت وجرب، فأجلسه وصار يسأله عن أشياء محرجة من تاريخه وسلوكه فقال: صحيح إن الذي يجلس على هذا الكرسي لا يسمع، هذه نكته، ولكن إغراء السلطان مثل ذلك والذي يصل إلى الكرسي بالقوة لا يسلمه لصاحب الفكر، أرجو أن تنتبهوا لذلك، الفرضيات كفرضيات جميلة، ولكن ينبغي أن ننظر إلى الواقع كيف يحدث. حين تتحرك القوات وتغير الأوضاع فإن الذي جاء بهذا النصر هو إنسان وضع روحه على كفه حتى أتى به، فلا يسلمه للآخر إلا بالطريقة نفسها التي أخذ بها، هذا هو الواقع، ولكن يا ترى هل إذا فعل المسلمون ذلك سيكونون أحسن من الآخرين؟ ربما لم يقعوا الآن في التجربة، ولكنني أتصور تماماً أن كل من يبيح لنفسه الوصول إلى السلطة بالقوة سيصل إلى النتيجة نفسها.

المشكلة كبيرة وينبغي النظر إليها من جوانب عدة، وأنا حين أجلس مع غير الإسلاميين فإنني أقول لهم: أنا حين أنهى عن هذا الاتجاه لا أقصد المسلمين فقط

ولكنني أنهاكم أيضاً لأن هذا الطريق الذي سلكتموه قد رجع عليكم بالضرر، لقد كانوا مثاليين وقوميين ويريدون الخير للأمة (الدوافع الطيبة نفسها التي نحملها) لكن انظر إلى البلاد العربية التي تجمعها الأيديولوجيا نفسها، إنها لا تتمكن من السير بعضها مع بعض، رغم كل ما يوحدها، وكلما ازدادت أواصر القربى والقواسم المشتركة كلما كان العداء أشد! أرجو أن تنتبهوا إلى الوقائع لأن الذي يسلك هذا الطريق سيقع فيما وقعوا فيه، ومن جملة ما قلت: إذا كنت تبيح لنفسك أن تأخذ الحكم بالقوة، إذا رأيت الآخر الذي أمسك الحكم بالقوة لا يمشي على الطريق الذي تريده أنت، فسيوجد في الأمة من يرى أنك مخطىء، ولو كنت مثل عثمان ﷺ، وقد وجد في مجتمع عثمان بن عفان من دخل عليه بيته واستباح قتله.

إذن ما دامت هذه الطريقة موجودة فإن عليك أن تذكر أنه لا يمكن أن تجمع الأمة على عدم خطئك، ولو كنت في مثل عدالة علي بن أبي طالب، فقد وجد في الأمة من قتله أيضاً، هذا الطريق حين تبيحه لنفسك فإنك تبيح لكل من يرى أنك لست عادلاً أن يرفع السيف عليك، ولهذا كان أخذ الحكم بالقوة في الإسلام حراماً وغير جائز مطلقاً، والسبب أنه طريق لنقص القانون (الشريعة)، ويجعل القوة فوق القانون، وهنا أرى أيضاً أن رسول اللّه ﷺ كان يقول: ((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))[1]، حتى أنه لم يسمح لهم أن يدافعوا عن أنفسهم، وإن كان الإسلام يبيح للإنسان أن يدافع عن نفسه أمام لص أو مجرم لكن حين يكون صاحب السلطان هو الذي يعتدي عليك من أجل عدم رضاه عن عقيدتك فإن عليك أن تقبل الاعتداء وتصبر، هذا ما يقرره القرآن: ﴿وَمَا نَقَموا مِنْهُمْ إِلاّ أَنْ يُؤْمِنوا بِاللّه الْعَزيزِ الْحَميدِ﴾ [البروج ٨٥/٨]، أي ينبغي أن

(١) ـ أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/٣٨٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٤٠).

يكون سبب إعتدائه عليك من أجل إيمانك لا من أجل أنك كنت تريد أن تزيحه وتستلم الحكم، لأنك إذا تصارعت معه من أجل الكرسي لا يكون قتله إياك من أجل إيمانك فقط، وإنما لشيء آخر، لذلك ينبغي أن تضعه في موضع واضح، حتى كأنه يقول: لأجل إيمانك أنا أقتلك. هكذا كان بلال يعذب لأجل عقيدته، حتى لا يقول الآخر: أنا اقتله وأعذبه لأنه كان يريد أن يأخذ مني الحكم، والمسلمون أباحوا لأنفسهم هذه الأعمال دون أن يبحثوا جذورها الفلسفية، وبكل بساطة ظنوا أنهم إذا استطاعوا أن يصلوا إلى الحكم، فإنهم سيكونون أحسن من الأخرين، ولكن التجارب خلال (١٤٠٠)سنة منذ عهد معاوية إلى يومنا هذا تدل على خطأ هذه الطريقة، فما من أحد قام بانقلاب وأخذ الحكم من الآخر إلا كان أسوأ من الذي سبقه، ويظل الذي أخذ فوق القانون.. بنو أمية كانوا هكذا (الثلاثون خليفة)، وبنو العباس كانوا هكذا، ثم جاء بعد ذلك المماليك، وهكذا إلى يومنا هذا، كلما جاءت أمة لعنت أختها، كلهم فوق القانون.

الجهاد بين السيف والقانون:

الإسلام جاء بالشريعة ليحكم القانون لا لتحكم القوة، وحماية الدعوة ليست بالسيف، ولكن الدعوة هي التي تجعل السيف محكوماً بالقانون، هذا الذي نريده، وهذا ما قلب النظام في العالم كله فالإسلام يعتبر الحكم الذي يُخضع السيف للقانون، ثم يرفع السيف يعتبر هذا الرفع جهاداً، ولكن إلى الآن الإسلاميون والقانونيون لم يبحثوا هذا الموضوع، بل ظنوا أني حين بحثت هذا الموضوع قد عطلت الجهاد، وأنا لا أعطل الجهاد والذي أريده، أن يتميز الجهاد من الخروج، وهناك شروط دقيقة للتمييز بين الأمرين، فالرسول ﷺ مدح المجاهدين في أحاديث كثيرة، وذمّ الخوارج ووصفهم بأوصاف عجيبة.. مثلاً في أبواب الفتن

في صحيح البخاري يقول عنهم: ((يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...))[1]، لأنهم يجعلون السيف فوق الشريعة أو يجعلون السيف هو الطريق لإيجاد الشريعة، وليست الشريعة هي التي توجد السيف المنضبط.. هذا الطريق يحمل موته في ذاته، وإذا أبحته لنفسك أبحته للآخرين، وأنا لم أرَ أحداً فسر هذا الموضوع بهذا الشكل غير أبي الأعلى المودودي، ولكن الشباب الذين يقرؤونه يقولون: هذا خاص ببلاده.. لقد شرحه شرحاً دقيقاً في كتاب (منهاج الانقلاب الإسلامي)، أما كتاب (الخلافة والملك) للمودودي فما قرأته.. لكنه في (محنة الجماعة الإسلامية في باكستان) وهو دفاع أبي الأعلى المودودي في المحكمة حين اتُهم بأنه أثار الفتن في باكستان، بين فيه بوضوح كامل أن هذا ليس من طريقته، بل إنه حين جاء إلى مكة ألقى محاضرة نشرتها مجلات كثيرة بعنوان: (واجب الشباب المسلم).

إنه لم يحاول أن يفلسف الأمر كما أفلسفه أنا، و لم يحاول أن يستشهد بالأحاديث والنصوص، لكنه قال: ((النصيحة الأخيرة التي أنصحها للشباب المسلمين ألا يقيموا جمعيات سرية، وألا يحاولوا الوصول إلى الحكم بالقوة، لأنهم إن فعلوا ذلك فإن الحكم الذي يصلون إليه مثل الهواء الذي يدخل من الباب ليخرج من الشباك)). لقد أوضح رأيه تماماً لكنه لم يذكر المبررات والشواهد والنصوص.

---

(١) ـ أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب: إثم من راءى بقراءة القرآن...، رقم (٤٧٧١)، مسلم في الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤)، وغيرهما.

حين ولي معاوية الحكم وأراد أن يأخذ البيعة ليزيد جمع رؤوس الحل والعقد، وقام أحدهم فقال: ((الخليفة هذا وأشار إلى معاوية، فإن هلك هذا فالخليفة هذا، وأشار إلى يزيد، ومن رفض هذا فله هذا ورفع السيف)). الأمر واضح جداً هنا، لكن رسول اللّه ﷺ لم يذهب بالسيف إلى المدينة، بل إنهم استقبلوه بـ ((طلع البدر علينا)) لقد صبر كثيراً وكان يعرض نفسه على القبائل ليخرج منهم من يحميه أو يقبله، و لم يحاول أن يأخذ بالسيف ليكون السلطان، بل أعطي السلطان له بإيمان الناس وإقرارهم، وحتى مع كونه رسول اللّه لم يحاول أن يمارس القوة إلا برضى الناس، ولهذا إذا جاء أحد ينازعك الأمر، فهو خارج لأنك وصلت بطريق شرعي، ومن جاء ينازعك فإنه يأتي بطريق غير شرعي، فهو خارجي وأنت قتالك له جهاد، سيفك جهاد، أما الآخر فإنه أراد أن يقفز من فوق، أن يأتي بالسيف، فهو خارجي بالنسبة لفهم الإسلام.

نحن الآن ـ معشر المسلمين ـ نظن أن الخوارج هم المجاهدون، ونستشهد بأقوالهم، ومنهم حمزة الخارجي، ونعتبرهم أصحاب الحرية والشرف والكرامة، وكثير من دعاة المسلمين يخلط بين عملهم وعمل الصحابة رضوان اللّه عليهم، هذا الاختلاط بين أمرين خطيرين يجعل المقدس دنساً والدنس مقدساً، ويبقى بعد ذلك أننا ما قُتلنا من أجل أننا نقول: ((ربنا اللّه)) ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنوا باللّه﴾ [البروج ٨٥/٨]، بينما نُقم منا أننا قَتلنا أشخاصاً، وحاولنا قتل آخرين لكن الرسول ﷺ كان يمر على آل ياسر ويقول لهم: ((صبراً فإن موعدكم الجنة))، ويأتي ورقة بن نوفل فيقول عن بلال: ((لئن قتلتموه لأتخذن قبره حناناً))، أي مكاناً ليذكر أن إنساناً مظلوماً قتل هنا، وهو لا يريد أن يفرض عقيدته على الآخرين ولكنه يريد أن يؤمن.

شريعة القانون وشريعة الغاب:

هذه نقطة كبيرة لكن الموقف الحضاري من الموضوع يشبه موقف قريش، ولهذا نسمعهم يقولون: (شريعة الغاب) أي الحق للقوة، ولكن بمجرد أن يكون هناك قانون يُلجم السيف؛ تصبح الحياة للقانون، السيادة للقانون. هناك شريعة غاب وشريعة قانون، القانون نظام وبطريق مشروع يأخذ الحكم، وما من مجتمع يعيش من دون قانون، ولكن المجتمعات تتفاوت فيه على درجات ونسب ففي الولايات المتحدة، في داخل بلادها، القانون عام، والقاضي لديه استعداد أن يحكم على رئيس الدولة، ونحن بكل فخار نتذكر أن القاضي حكم لليهودي على علي، لأننا نجد أن الذين يفعلون هذا هم الذين يستعيدون الشريعة (القانون)، وليس الذين يسيّدون القوة. أولئك أقرب للشريعة منا نحن المسلمين، أي يسوون بين الناس: ((لا فضل لعربي على أعجمي ... إلا بالتقوى))[1] إلا أن الولايات المتحدة لها قانون في الداخل وآخر في الخارج ويمكن أن نشبه ذلك بالغربال، كم عدد الذين يبقون فوق القانون؟ هؤلاء قلة لأن المجتمع مبني على أساس سيادة القانون.. هذا الموضوع تعبير عن مشكلة كبيرة، ويستطيع بعضنا أن يفهمها بسرعة إذا كان يرى كيف جاءت عواقب المحاولات، لكنه ربما لا يفهمها على أساس أنها سنة وقانون، وأن رفع السيف معناه خرق القانون وجعل القوة فوق الشريعة. متى نشعر أن الولايات المتحدة الآن والإنسانية تقدمت؟ حين يعم العدل جميع الناس، الولايات المتحدة بعد الحرب الثانية، أنشأت مجلس الأمن، ومجلس الأمن مبني على شريعة الغاب، إنه فرضية الأقوياء حين انتصروا، لتكون في أيديهم مزايا مثل حق الفيتو، ولكن الفيتو قوة فوق القانون، إن قمة العالم الآن تمشي على شريعة الغاب، وإن كان هناك مستوى

(١) ـ أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣٨١)، عن أبي نضرة.

آخر داخل الولايات المتحدة فهناك يوجد قانون، فالقوي في العالم اليوم هو الذي له الحق، حق الفيتو.

من هذا المنطلق يشعر المسلمون أن العالم كله يجري على هذا الأساس، ولهذا فلابد من حمل السلاح واللجوء إلى القوة. هذا هو الواقع، ولكن ليس حل المشكلة أن تصير أنت فوق القانون، المسلمون الآن يشكون من أن غيرهم فوق القانون، والإمتحان أمامهم في المستقبل، ويرجون الوصول ويظنون أنهم إن وصلوا فسيحكمون بالسيف لمصلحة الناس وللعدل.

وإذا أردنا أن نبحث في كيفية الخلاص من أزمة العالم الإسلامي من الناحية الشرعية، فإن لي تصوراً في شرح هذه القضايا، وهو أن يكون لدينا حدود دقيقة، للفصل بين الخروج والجهاد، بين شريعة الغاب وشريعة القانون، وما دام هناك اختلاط في الموضوع، فكل واحد يسمي سيفه القانون وسيف الآخر شريعة الغاب، وهذا ما يتنازعون فيه الآن حين يقولون: هذا من الدفاع، وهذا من الإرهاب. كيف يمكن التمييز بينهما؟ هذه مشكلة مطروحة عالمياً، وحتى مجلس الأمن حين عرض عليه تعريف العدوان (الاعتداء) لم يستطع أن يعرف معنى العدوان، وقال: هذا غير قابل للتعريف.. لأن روسيا تعتبر نيكاراغوا معتدىً عليها من قبل أمريكا، وأمريكا تعتبر روسيا معتدية على أفغانستان، من هو إذن المعتدي؟؟!!

حين يتنازع أصحاب القوى لا يبقى هناك حق، لأن القوة في عالمنا هي التي تحكم، والمسلمون الآن إن لم يفرقوا هذه الأمور عن بعضها، ربما يقعون في شريعة الغاب وهم يظنون أنهم في شريعة اللّه، ينبغي أن يكون هذا الأمر واضحاً قبل أن نخطو أي خطوة، ومثلما يقول المودودي: إذا كان بعض الناس لا يريدون أن يتحاكموا إلى محاكم الدولة فليست الطريق هي أن نرفع على الدولة

قضية، بل الطريق هو أن نتركها، فإن كنا نرى أن شريعة الغاب طريق خاطئ، وندين الآخرين لأنهم يقبلونها، فليس الحل أن نفعل مثلهم ونتبع أسلوبهم بل أن نتبع القانون والشريعة، والقانون هو الذي يعرف طريقة إيجاد السيف المحكوم بالقانون، وليس العكس، والرسول ﷺ صبر حتى أنشأ السيف المحكوم بالقانون، ولهذا حين رفع أحدهم السيف وقتل الذي قال: (لا إله إلا اللّه) قال له: ((أين تذهب بـ (لا إله إلا اللّه) إذا جاءتك يوم القيامة؟)) قال: ما قالها إلا خوفاً من السيف، قال: ((هلا شققت عن قلبه؟.))[1]. فالسيف الذي يخرج على القانون خطر لا يريده القانون، والقانون يستطيع بطريق قانوني أن ينشيء سيفه، وهذا ما فعله رسول اللّه ﷺ ونحن علينا أن نفهم هذا.

اللاعنف وتغيير العالم:

أعتقد أننا نصبح قاب قوسين أو أدنى من هدفنا، حينما نصير على استعداد أن نقدم أنفسنا وفق الآية؛ ﴿وَمَا نَقَموا مِنْهُمْ إِلاّ أَنْ يُؤْمِنوا بِاللّه الْعَزيزِ الْحَميدِ﴾ [البروج ٨٥/٨]، فندخل الميدان لا من أجل أن نأخذ الحكم منهم ولكن لأجل أن نظهر الحق ونلتزمه. هنا تكمن النقطة الأساسية للوصول إلى تغيير العالم، وهذا هو الذي حاول غاندي أن يمارسه إلى حد ما، وإن كنت لا أذكره حينما أتحدث إلى المسلمين، لأن غاندي عندهم مجوسي لا قيمة له.

هذه المسائل الدقيقة يجب أن تراعى مثل الطاقة الكهربائية: البشر لا يستطيعون الحياة من دونها فبمجرد ذهاب الكهرباء تقف الحياة، ومع ذلك هذه الطاقة إذا خرجت عن نظامها الذي وضعت له تحرق الجهاز وتحرق كل شيء

---

(١) ـ أخرجه البخاري في المغازي، باب: بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، رقم (٤٠٢١)، ومسلم في الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال: (لا إله إلا اللّه) رقم (٩٦) بنحوه.

وتدمره، بمجرد أن تخرج عن قانونها يأتي الخراب، هذه الطاقة مثل السيف، نحن نظن أن لها حرية الحركة، ولكن حرية الحركة تحدث صواعق وحرائق وتدميراً، أما حين يُضبط بحيث لا تخطو خطوة واحدة خارج القانون، فهذا يخدمك خدمة عجيبة.

هذا موجود حتى عند غير المسلمين فاليساريون عنيفون أيضاً، ولا يشعرون إلى أي حد يتنكبون القانون الطبيعي للبشر، إن استمرار الحياة البشرية يتم بالزواج، وكل المجتمعات المؤمنة والكافرة يضع قانوناً لهذا وتعتبر ما يحدث من لقاء ضمن هذا القانون وهذه الشروط شرعياً ومباركاً، ومايخرج عنه جريمة يعاقب عليها القانون، لأن المجتمع لا يستقيم حين نقيم أسرة بالاغتصاب، وكذلك لا يمكن تصور إقامة حكم بالاغتصاب وهذا المثال واضح جداً.

الفتوحات الإسلامية وسيادة القانون:

ولكن إذا سلمنا بذلك كيف نفسر الفتوحات الإسلامية؟!

الفتوحات الإسلامية إلى وقت معاوية كان القانون فيها هو الذي يحكم السيف، لكن حين جاء معاوية هو نفسه استثني من القانون، وظل السيف هو الذي يرتفع، وبعض الأحكام قد تكون مخالفة له، هذا لا يهمنا، لكن إلى أن جاء معاوية كان الحكم للشريعة وليس للسيف، فلما جاء معاوية، صارت القمة للسيف والقانون يأتي بعده، الرسول ﷺ والصحابة وصلوا إلى الحكم بطريق شرعي، وليس بالاغتصاب، واستخدموا السيف بشكل شرعي، فالفتوحات في زمنهم كانت ضمن القانون، وحينما كانوا يفتحون الشام.. قال أبو عبيدة بن الجراح لأهل بلد فيها: ((إذا كنتم تشعرون أننا أخذناكم على حين غِرَّة نرجع ونخرج عنكم، ثم نتحارب من جديد)) هذا مذكور في التاريخ، والمسلمون يفتخرون به كثيراً، لكنهم لا يفطنون إلى أي حد يجب أن يكون السيف محكوماً

بالقانون، وكيف يكون الأمر إذا خرج، المسيحيون في تلك البلاد فطنوا فاحتجوا على خروج السيف عن القانون وقتها، والقانون يقول: ((اذا حاصرت بلداً يجب أن تعرض عليهم أموراً ثلاثة)) والحاصل أن درجة الاشتباه في هذا الموضوع كبيرة، وأنا لم أر أحداً طرق الموضوع بهذا الشكل وبهذا التفصيل: شريعة الغاب وكيف بدأ خلق القانون.

إذن الجهاد هو السيف المحكوم بالشريعة، وبمجرد أن تحاول صنع انقلاب فقد أخذت سيفاً غير محكوم بالشريعة، ولهذا فإن الرسول ﷺ لم يرفع سيفاً غير محكوم بالشريعة، بل إن السيف جاء إليه خاضعاً قائلاً: أنا لك احكم بي كما تريدا أهل المدينة جاؤوا إليه وقالوا: احكم بنا وعلينا!! لم يذهب هو إليهم بسلطان وقوة، وإنما هم الذين جاؤوه. هذا هو السيف المحكوم بالشريعة، والفتوحات نتجت عن ذلك، ولكن نحن نريد أن نبدأ بداية معكوسة.. أشعر أن عيسى عليه السلام قد عبر عن هذا المعنى الفلسفي الذي عبرنا عنه من الناحية القانونية، ومن الناحية الشرعية الإسلامية، عبر عنه في الإنجيل حين جاؤوا إليه يريدون أن يقتلوه، فأحد تلاميذه قام واخترط السيف، وضرب رئيس الشرطة فقطع أذنه، فقال عيسى عليه السلام: ((ردَّ سيفك إلى مكانه فمَنْ يأخذْ بالسيف، بالسيف يَهلِك)) [متى: ٢٦/٥٢]. عبارة دقيقة وواضحة جداً، تعني أن كل من جعل السيف فوق القانون، يمكن أن يأتي سيف آخر ويقضي عليه، لأنه أزعج سلطان القانون.

الحياة الاجتماعية والمدنية ونمو البشرية يتم بإخضاع أو جعل القانون عاماً، أما إذا كان كل قوي يأخذ بالقوة ما يريد فهذا قانون الغاب، وشريعة الغاب، وشريعة الخوارج بالنسبة للإسلام، لماذا سمي الخوارج خوارجاً؟! لم يبحث هذا الأمر إلى الآن، إنهم مؤمنون طيبون جداً، لكنهم غفلوا عن هذه النقطة، وظنوا

أنهم يقيمون الحق بالسيف، و لم يعلموا أن الحق هو الذي يقيم السيف، وليس السيف هو الذي يقيم الحق، وهذا هو خطأ الخوارج، وقد كان سلوك الرسول ﷺ سلوكاً عجيباً في صبره وثباته، كان يرشد الأفراد إذا كانت الدولة تعترض على إيمانهم وأسلوبهم في الدعوة، فينبغي أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

التوحيد والتزام القانون:

هذا الموضوع يمكن أن يبحث من عدة جوانب وبعدة أمثلة، نستطيع أن نبحثه من خلال دراسة الإسلام أو التوحيد فأول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمْ﴾ [العلق ٣/٩٦]، في هذه السورة يبين لك كيف تدخل في الإسلام وأنك حين تدخل في الإسلام فسيعاديك الناس، لذلك قال لك: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذي يَنْهىَ عَبْداً إذا صَلَّى... كَلاّ لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ﴾ [العلق ٩٦/٩-١٩]، إذا نهاك المجتمع الذي أنت فيه لأنك دخلت في شريعة اللّه، فكيف يكون عملك؟! هذه نقطة مهمة في التوحيد والإيمان، فأنت تظن أنك حين تؤمن فستظل تكتم إيمانك حتى تصل إلى القدرة على أن ترغم الناس على أن يؤمنوا، بينما الإسلام يقول لك: أنت أعلن إيمانك ولا تحاول أن ترغمهم على أن يدخلوا في ما آمنت به، ادخل أنت إلى الإيمان أولاً، وأعلن أنك دخلت، ولا تحاول أن ترغم أحداً على ذلك، أخرج أنت من عبادة الطاغوت، فإذا أمرك بمعروف تطيعه، وإذا أمرك بغير ذلك فلا تطعه.

الإسلام يبدأ بأن تخرج من عبادة العباد إلى عبادة اللّه، لا بأن ترغم الذين يعبدون غير اللّه على أن يخرجوا من كفرهم، تخرج أنت بنفسك، وتعرض على نفسك ألا تعبد الآخرين، وإذا أرادوا أن يعذبوك فليفعلوا، ليعذبوك لأنك أردت أن تخرج من طاعة غير اللّه ﴿وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إلاّ أنْ يؤْمِنُوا بِاللّه﴾

[البروج ٨٥/٨]، ولهذا أيضاً جاءت ﴿لا إِكْراهَ في الدّينِ﴾ [البقرة ٢/٢٥٦]، الذي أريده من المسلمين أن يعلنوا بوضوح أنهم لا يقتلون ولا يضربون ولا يتعاونون مع الذين يريدون أن يقلبوا الحكم، وأن لديهم استعداداً لأن يؤمنوا ويتمسكوا بإيمانهم، وإذا أراد أحد أن ينهاهم عن طاعة اللّه لا يطيعونه، هكذا أمور الدين تتمسك أنت بها، فإذا أراد الآخر أن يعاقبك على ذلك فليفعل، ولكن لا تحاول أنت أن ترغمه على دينك لأنه ﴿لا إِكْراهَ في الّدينِ﴾، نحن لا نريد أن يدخل أحدٌ في الإسلام بالقوة، وكذلك لا نسمح لأحد أن يخرجنا من الإسلام بالقوة، وفي الوقت الذي نفعل فيه هذا نكون قد أثبتنا أن الحق فوق القوة.. ولكننا مع الأسف نفعل العكس فنتركهم يقهروننا ويرغموننا على ترك أمر اللّه، وبهذا الشكل نكون قبلنا أن نُكْرَهَ على دين معين، بينما الإسلام يقول: إن لك الحق أن تموت ولا تكره في الدين، وبينما نحن نقبل أن نُكْرَهَ، فإننا نريد أن تسنح لنا الفرصة للقضاء على فكر الآخرين.

ولكن ماذا عن قوله تعالى: ﴿إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ﴾[النحل ١٦/١٠٦]؟!

هذا شيء آخر، لكن القانون الأساسي أننا لا نقبل أن يعرض علينا أحد دينه بالإكراه، كذلك نحن لا نُكره الآخرين، لكننا في وضعنا الحالي نفعل العكس، فجأة وفي لحظة من اللحظات نقفز عليهم، هذا الإنسان لم يصبح في مستوى من يتحمل تبعة إيمانه، الإنسان الذي لا يريد أن يقتل، ولكن يريد أن يَثْبُتَ على إيمانه، ولا يفر من المعركة.

إذا كنت تريد أن تقتله وهو يريد أن يقتلك فإن هذا يكون نوعاً من الشطارة البعيدة عن الإسلام، الإسلام ألا ترغمه ولا تقبل أن يرغمه أحد، الإسلام أن تكون مثل بلال الذي كان تحت التعذيب يقول: ((أحد.. أحد..))، نحن الآن

ألغينا هذا الأسلوب، ونريد أن ندبر مؤامرات للآخرين، والآخرون يدبرون لنا المؤامرات أيضاً، وكلنا نعيش في رعب مستمر، ولهذا أقول كثيراً: أنا ليس عندي شيء أخفيه عن المخابرات، بل أحب أن يعرفني المخابرات على حقيقتي وبوضوح.. ولا أتنازل عن شيء من إيماني. صحيح أنني لا أتآمر عليهم ولا أتعاون مع الذين يتآمرون عليهم، ولكنني أتمسك بما آمنت به، فإن لم يعجبهم فإنني أكون مثل ابن آدم الأول الذي قال لأخيه: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة ٢٨/٥]، لا حرج أن يقتل كثير من الناس لأجل عقيدتهم، وأنا أقبل أن أقتل من أجل عقيدتي فـ ((سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله))[1]، والله سبحانه و تعالى أباح لنا أن نقول كلمة كرامة للحياة، كما حدث للصحابة فبعضهم تكلم بكلام الكفر من شدة التعذيب.

إنها قضايا واضحة جداً، ولكنها غامضة جداً أيضاً، مثلما كانت قضية الشمس، فالناس كانوا يظنون أنها هي التي تدور حولنا، ونحن اليوم نظن أن السيف هو الذي يحرك العالم، بينما القانون هو الذي يحرك الإنسان، والقرآن يخبرنا أن الباطل يموت إذا جاء الحق، ولا يقول: إن الحق يطارد الباطل ليقتله!!، الحق الواضح حينما يأتي فإن الباطل يموت بنفسه، وهذا ما لم نكشفه في الواقع، ولهذا فإن بعض الذين كتبوا شعروا أن الإسلام الذي دخل الأندلس دخل بالسيف، شعروا أن طارقاً مثل معاوية كلهم اشتهوا إمارة البلاد، وكل واحد أراد أن يصبح أميراً...

وأنا أقول: هذا البلد الذي فتح بهذا العنفوان والقوة أخرج منه المسلمون

---

(١) ـ أخرجه الحاكم في مستدركه (١٢٠/٢و٩٥/٣و١٩٥و١٩٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٦٥/٣)، وفي الأوسط أيضاً، وغيرهما.

بالعنفوان والقوة ولكن أندونيسيا، هذا البلد الضخم الذي هو أكـبر مـن إسـبانيا بكثير من حيث تعدادُ المسلمين فيه، لم يذهب إليه الإسلام بالسـيف، وإنما جـاء مع الناس البسطاء من المسلمين الذين يقولون: ربنا اللّـه، ولا يزال إلى الآن أكـبر دولة إسلامية في العالم لهذا يمكن أن نرجع إلى حيـث اختلطـت الأمـور وتغلبـت شهوة السيف والسلطان على الدعوة، وصاروا يقولون: ((دوخوا العباد وفتحـوا البلاد...)).

القانون ونشر الوعي:

لقد احتج على هذا الأسلوب الذي قاموا به عمر بن عبد العزيز، فحين وصل إلى الحكـم قـال: ((ويلكـم إن اللّـه بعـث محمـداً هادياً و لم يبعثـه جابيـاً!! أيـن تفتحون البلاد والناس لم يفهموا الإسلام بعـد؟)) ليس المهـم أن نُخضـع هـؤلاء بالسيف ونأخذ منهم الجزية أو الخراج، ليس هذا هدف الإسلام!! هـؤلاء يجـب تعليمهم وإذاقتهم العدالة والرحمة، فكيف نذيقهـم العدالـة؟! هـذه أمـور خطـيرة يُعرض عنها المسلمون المثقفون، بدل ذلك تراهم يلوحون بالأسلحة والشـعارات وأنهم أبطال وشجعان ويريدون أن يجاهدوا في سبيل اللّـه.. إنها سذاجة وليست فهماً لحقائق الحياة وسنن الكون.

حين تنظر إلى الوقائع تجد أنك لو جلست علـى هـذا الكرسـي الـذي يجلـس عليه الآخر ثم صار الجماعة الذين يعترضون على زعمائهم الآن يعترضون عليـك فكيفّ تتصرف إزاء هؤلاء؟! إنك ستتصرف التصـرف نفسـه، إذن: ((كـل مـن أخذ بالسيف بالسيف يهلك))، لهذا عليك أن تبطل السيف قبل كل شيء، وأنـا أبطلت مفعول السيف وشعرت أنني أستطيع أن أدخـل بالأفكـار لأنـاقش النـاس وأُفهمهم حقائق الحياة فهناك علاقة بين الفكرة والقوة أو بين الفكرة والشـريعة، كلما كان الإنسان متمكناً في الفكرة فإنه لا يلجأ للقوة، وحتـى في الأسـرة فـإن

الرجل الذي يعجز عن حكم بيته هو الذي يلجأ إلى ضرب زوجته، والأستاذ في المدرسة الذي لا يستطيع أن يجذب انتباه الطلاب بالفكرة ينزل عليهم بالعصا، وكل المجتمعات تلجأ إلى القوة حينما تنكشف فكرياً. هذا واقع الحياة ولهذا عندما يصبح لدينا علم لا نلجأ إلى العنف والإكراه، قديماً كان الناس يفرضون الأنظمة والقوانين ولكنهم استطاعوا أن يصلوا إلى حقائق في قيادة الناس وإشعارهم أن هذا البلد من صنعهم، وأن عليهم أن يحموه ويدافعوا عنه ويخلصوا له، هذه الحقائق يمكن تعليمها للناس من غير قهر وصار الناس يكتبون أحياناً: ((الشرطة في خدمة الشعب))، لكننا نشأنا في بلاد لا يأتي الشرطي فيها إلا ليجمع الضرائب من الفقراء، وليأخذ بعض الناس إلى السجون، فصار الشرطي يمثل الرعب ولا يمثل الحماية، يمثل الاستعمار، وحتى الشرطي نفسه عمله عبارة عن أكلة دجاج والذين يذهبون من الشرطة إلى القرى يتحكمون بالناس، ويأكلون أطايب طعامهم، ويجلدونهم بالسياط، هكذا تسير الأمور إلى يومنا هذا، لأن علاقتنا ببعضنا تتحكم فيها القوة، كل من أخذ بالسيف يدبر له الآخرون المكائد ليأخذوا منه، لهذا نحن الآن مهانون ومحتقرون، ولا نستطيع أن نغادر الحدود ونسافر في العالم، فالناس يظنون أننا نحمل القنابل، بل في المسجد الحرام نفسه كانوا يفتشون المرأة حينما تدخل لأن بعض الشباب قاتلوا في الحرم عند افتتاح أول يوم في القرن الخامس عشر، وقد وقتوا ذلك لأنهم يريدون أن يجعلوا القرن الخامس عشر الهجري قرناً إسلامياً، ولكنهم لم يعرفوا أن الطلقات التي أطلقوها ترجع إليهم، هذا واضح جداً من الناحية الفكرية.

كل من أخذ بالسيف، بالسيف يهلك:

ما بهذا الشكل يكون الدخول إلى ميدان الإنسانية، وهذا الموضوع يمكن عرضه من جوانب عدة، فالإنسان يُغفل هذه الأشياء والأمور، وهي تجري

وتعمل ضده... ونحن منذ عشرين بل أربعين سنة ندبر، وكل مرة نخرج بغير ما نريد، هناك خطأ ينبغي أن نفكر فيه، وهذا الخطأ إلى الآن لم نكتشفه. لقد عشت منذ عشرين سنة وكتبت في هذا الموضوع كتاباً، و لم يكن بمثل الوضوح الذي أعرضه الآن، لكنني أعلنت فيه طريقتي في الدعوة الإسلامية، وأن هذه الطريقة هي (مذهب ابن آدم)، وقد اعتبره بعض الناس هراء، وحتى الشيخ الطنطاوي قال: ((في الشام يوجد رجل درويش يقول: أنا لن أَقْتُلَ.. أنت أقتلني إذا أردت))، طبعاً هذا الشيء أنزله اللّه في القرآن: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ ابْنَيْ آدَمَ بالْحَقِّ﴾ [المائدة ٥/٢٧]، في السورة التي نزل فيها قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ﴾ [المائدة ٥/٣]، وسورة المائدة من أول ما نزل من القرآن، اللّه تعالى يضرب لنا مثل ابني آدم حين تنازعا، وكيف حلاّ المشكلة. العجيب أنهما تنازعا لأن أحدهما تُقُبِّلَ قربانه والآخر لم يتقبل، والذي أخطأ و لم يتقبل قربانه قال للآخر: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾، فقال الآخر: ﴿إنِّي أَخافُ اللّه رَبَّ الْعالَمينَ﴾، وحتى في التفسير يقولون: إن الذي قال هذا كان يملك العضلات، و لم يقل ذلك عن ضعف، والناس لم يكن عندهم أسلحة إلا حجراً أو شجراً، واليوم فإن موقف ابن آدم، بعد هذا التاريخ الطويل، بدأت آيات الآفاق والأنفس تظهر أنه هو الموقف السليم ولو أدى إلى الموت، منذ خمس سنوات سمعت أن حزب العمال البريطاني أعلن ضرورة نزع السلاح من طرف واحد، سمعت هذا مصادفة بالراديو، وانتبهت إليه وقلت: الآن صار ابن آدم يقول: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أنا بِباسِطٍ يَديَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ لأن قوة السلاح بلغت درجة لا ينجو إن استخدمت أحد من المتقاتلين.

إن العاقل الآن يقول: أنا خرجت من هذا الميدان لأنه لم يعد ميداناً للتنافس، لم يعد فيه تنافس شريف وإنما هو قتل فقط، ولذلك أنا أرمي السلاح ولو من طرف واحد، والصين قامت بهذا العمل الآن، صحيح أنها صنعت أسلحة

نووية، لكنها خرجت من سباق التسلح، وكأنها قالت: أنا أستطيع أن أرد العدوان علي، أما التنافس على الهجوم فأنا لا أمثله، لأن التنافس الآن تنافس في صنع الصواريخ التي تحمل القنابل، والأماكن التي توضع فيها، ونقلها إلى النجوم.. والصواريخ التي تستطيع أن تمتنع عن التشويش، وتنطلق إلى أهدافها من غير أن يوقفها شيء، ومنذ خمس سنوات بدأ يظهر بأشكال مختلفة، وروسيا حين أوقفت التجارب النووية من طرف واحد لم يكن موجوداً هذا في العالم، لم يكن العالم يعرف نزع السلاح من طرف واحد مثل ابن آدم، كان هذا أمراً غريباً يستدعي السخرية كما سخر الناس مني حين كتبت مذهب ابن آدم، لكن آيات الآفاق والأنفس وما حدث في الواقع فرض على الناس الآن أن يغيروا تفكيرهم، وحتى الدول العظمى نزعت السلاح وصارت تقول: المستقبل لا يكون إلا للأعمال السلمية وليس للعنف، فالذي يبدأ بالعنف هو ا لفاشل، الذي يأخذ بالسيف به يهلك، هذه حقائق يمكن عرضها فالمشكلة الآن ليست مشكلة المسلمين وحدهم، بل مشكلة العالم كله حتى في مستوى روسيا وأمريكا، إنهم الآن يعملون بالطريقة القديمة، بطريقة الذي قال لأقتلنك، التنافس بالسلاح على طريقة ابن آدم الفاشل وإن كان قتل الآخر، كلنا سنموت ولكن المهم أن يكون قد قُتِل على طريق الحق لا على طريق الخطأ، لأن الخطأ لا يُنبت إلا الخطأ، أما الصواب فإنه وإن مات حامله فسينبت الصواب ويبقى: ﴿وأمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الْأَرْضِ﴾ [الرعد ١٣/١٧].

ضرورة تبليغ الأفكار:

حاولت أن أعرض الموضوع من جوانب عدة، ولكن المشكلة أن الشباب الذين لم يتعودوا أن يسمعوا مثل هذا البحث، لا يستطيعون أن يثقوا بعقولهم، وبأنهم يستطيعون أن يفكروا وأن يصلوا إلى الصواب، ويتساءلون كما تساءل

فرعون حين قال: ﴿فما بالُ ٱلْقُرون ٱلأولى؟!﴾ [طه ٢٠/٥١]، ألم يفهـم الكبـار الذين سبقونا هذا الموضوع؟؟!! ليس المهم ما إذا فهموا أو لم يفهموا، ولكن هل هذه حقائق ووقائع أو لا؟

عند البحث والدرس تظهر هذه الحقائق وإن كان الذين يقبلونها قلة، فينبغـي أن نتمسك بها وندعو إليهـا ونتعمـق في فهمهـا، وفي النهايـة سـتكون صحيحـة بينما الرأي الآخر المجمع عليه هو الخطأ الذي دفعنا ثمنه كثيراً ولا نزال ندفع حتى الآن، وما زالـت فئـات في كـل بلـد إسـلامي تجلس لتدبـر سـبيلاً للوصـول إلى الحكم، يظهر هذا في مصر خاصة، ومنذ عشر سنوات بل منذ عشرين سنة تقـوم الجماعات بأعمال عنيفـة وتتكـرر الأعمـال نفسـها في كـل بلـد، فـالذي اغتـال السادات كتب كتاب (الفريضة الغائبة)، وكأنه هو وحده الـذي يقـول بالجهـاد والمسلمون لا يعرفون شيئاً!! لَمَ هذا الوهَم؟ لأنه يظن أن الآخرين جميعـاً يُقِرّونـه فهم يشعرون أن هذا هو العمل الصحيح، ولكن ما استطعنا أن نفعـل مثلـه. هـو قال: لو كنت وحدي فسأعمل الذي أؤمن بصحته، ولهذا الشباب حـين يقعـون في مثل هذه الأمور لا يكفي أن نقول لهم ونحن قاعدون: لقـد استعجلتم فـالأمر صار خطيراً، ولا يسمح بدخول الشـباب إلى المسـاجد وللتـدارس فيهـا، والـذي يذهب ابنـه إلى المسـجد تجده خائفـاً عليـه، لأن جماعـة السـريين يـأخذون هـذا الشاب الطيب البسيط ويزلقونه في العنف، أعرف كثيراً ممن أخذوا مـن آبـائهم، وتم إقناعهم بأن طريقاً ما هو طريـق اللـه وطريـق الحـق، فـالتحقوا بـه في لحظـة حماس من غير فهم.

هـذه القضيـة صـارت تخلـق مشـاكل وعقبـات في سـبيل العمـل الإسـلامي، والآخرون وجدوا حجة على المسلمين، واتهموهـم بالإرهاب بدليل أنهم يقتلـون الناس ويعملون الأعمال التخريبية ويظن والواحد منهم أنـه إذا اشـترى مسدسـاً،

فكأنه يخدم الإسلام ويعد للجهاد والأعمال العظيمة.

إن سكوت العلماء وعدم شعورهم بخطورة هذه التصرفات هو الذي يشجع الشباب عليها فتتكرر الأخطاء، وحتى العلماء غير الموافقين على ذلك فإنهم لا يجرؤون على التصريح برأيهم، لأنهم يشعرون بالحرج من تخطئة هؤلاء المخلصين الذين يعملون في سبيل اللّه أمام الطغاة فكيف ندينهم؟! لقد اختلط الأمر عليهم والرسول ﷺ قال: ((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)) قالوا: يا رسول اللّه، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: ((تأخذ على يديه))[1]، أن تقول له: هذا الطريق ليس طريقاً شرعياً ولا إنسانياً..

الإسلام وصناعة القانون:

بدأت بحثي بسؤال: هل السيف فوق الكتاب من الناحية الشرعية؟ النقطة التي انطلقنا منها كان ترتيبها خاطئاً، لأن المبدأ الذي تسعى الإنسانية إليه والذي نزلت الشرائع من أجله هو أن تلجم القوة وتلغى شريعة الغاب، ولكنّ الجهل يجعلهم يريدون أن يجعلوا الحياة الإنسانية قائمة على شريعة الغاب، وإذا بدأت بالقوة جعلت الأمر هكذا.. لهذا توماس كارليل كان يرد على ادعاء بعضهم بأن الإسلام انتشر بالسيف ويقول: ((ويلكم إن الإسلام هو ضحية السيف))، وأنا أقول: الإسلام نشأ بالسلم، ولكنه بعد ذلك صنع السيف المشروع، وانتزع الغل من نفوس العناصر المؤمنة التي تخضع للقانون وتصلح أن تضبط نفسها، والمشكلات دائماً تبدأ عند الانتصار لأن كل الانتهازيين يأتون بعده، والمنافقون

(١) ـ أخرجه البخاري من حديث أنس، باب: أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، رقم (٢٣١٢)، والترمذي في الفتن، باب: رقم (٨)، رقم الحديث: (٢٢٥٦)، ومسلم نحوه من حديث جابر في البر، باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم (٢٥٨٤).

إنما وجدوا حين صار للمسلمين دولة، والمنافقون يسرعون إليك أكثر من المؤمنين، لأن المؤمنين لديهم حياء، فهم لا يتقربون للسلطان، ولهذا وصف ﷺ الأنصار بقوله: ((إنكم ـ ما علمت ـ تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع))[1].

حين تفسر الحقائق بهذا الشكل نستطيع أن نرى أموراً كثيرة، باستور كان يواصل تجاربه في معمله بينما الوباء يحصد الناس حتى من أقاربه وهو منكبّ على الدرس والبحث، ولم يكن من مصلحته ولا مصلحة العالم أن يهتم بالأموات ويترك تجاربه في المختبر، وحين اهتدى إلى حل المشكلة بطرق سليمة أنقذ العالم جميعاً، ونحن الآن مدينون له بما نتمتع به من صحة. وأنا أشعر أن مشكلتنا الآن ليس بأن نعلمّ إنساناً معيناً أو ننقذ إنساناً معيناً، وإنما ينبغي توضيح المنهج كي يكثر عدد الذين تفهّموه وتبنّوه، فهذا هو الذي يساهم في إيضاح الأمور وجعلها مقبولة.

إن كشف القانون بوضوح وثيق أمر مهم وأساسي، ولهذا سألني الأخ الأستاذ عبد الحليم أبو شقة حين شعر بأن هذا الموضوع مهم: هل سجلته؟ فقلت له كتبته في الماضي ولكن ليس بالكيفية التي عرضته بها الآن.

أرجو أن يساعد هذا العرض على إيضاح هذا الموضوع، وقد شعر الأستاذ عبد الحليم أبو شقة بأن الأمر قد توضح لديه بهذا الشرح، وقال: لو جئت من أمريكا إلى هنا من أجل هذا الموضوع لكان جديراً ومفيداً.

الرسول ﷺ في حروبه كلها مع قريش، هم الذين كانوا يبدؤونه ويعتدون

---

(١) ـ أخرجه العسكري في الأمثال عن أنس من حديث طويل كما في كنز العمال (٦٦/١٤).

عليه، وهو يقول: ((يا ويح قريش أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلو بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون))[1]. فمن البداية حين صار السيف بيد النبي ﷺ بطريق شرعي نزل في الكتاب قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج ٢٢/٣٩]، والروم أيضاً هم الذين كانوا يتعرضون للمسلمين، والرسول ﷺ دعاهم وأرسل إلى الروم والفرس دعوة الإيمان، والانتقال إلى الروم والفرس كان بالقانون، وحين رفع المسلمون السيف رفعوه بالقانون، والقانون له جانبان:

١ ـ قانون تنفيذي في الداخل.

٢ ـ قانون للحماية في الخارج.

الجهاد بالسيف له شروطه: أن لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا امرأة... وتوينبي يبحث هذا الموضوع في كتابه دراسة التاريخ، ويضع قاعدة ((كل من أخذ بالسيف به يهلك)) ويقول: ((كل الحضارات التي تنشأ بالسيف تهلك ولا تنمو)) ويقول: ((إذا اعترضوا علي بالإسلام أنه أخذ بالسيف و لم يهلك فإنني أقول: إن الإسلام لم ينطلق بالسيف وأنتم الذين تخطئون... بل إن الإسلام جاء بشيء جديد على العالم كله، وهو أنه أجاز للمخالفين له في الدين أن يعيشوا في ظله محترمين، ونحن الغربيين لم نصل إلى هذا، ولذلك نجد البروتستانت والكاثوليك يتقاتلون...)).

---

(١) ـ أخرجه أحمد (١٨٨١٢)، والبخاري في الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٥٨١) (٢٥٨٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٧٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢١٨)، كلهم عن المِسْوَر بن مَخرمة ومروان بن الحكم.

إذن فكرة أن يعيش الناس أحراراً في دينهم ليست مـن عندنـا، وإنما الإسـلام هو الذي يرفع عنهم الظلم، يعفيهم من التكاليف المفروضة على المواطن المسـلم، ومن القواعد التي يضعها ابن تيمية ليكون الكتاب فوق السيف قوله: ((القتال في الإسلام ليس لأجل الكفر ولكـن مـن أجـل الظلـم، لأنـك بعـد أن تنتصـر علـى خصمك له الحق أن يبقى على دينه فالقتال لإزالة الظلم))، وتوينبي يقـول: ((إن هذا الفتح الإسلامي لم يكن لإرغام الناس بالقوة على الدخول في الدين)).

والحمد لله رب العالمين.

ماموقف المسلمين من العلم ؟ ماهي العلاقة بين اللغة والواقع ؟ كيف نفهم مـن الإسـلام حرية الـرأي والعقيـدة وحقوق الإنسان ؟ والعلاقة بين القوة والقانون ؟ ماهو الجهاد، وماهي شروطه ؟ ما الذي يمنع العالم الإسلامي من الدخول إلى ميدان الحضارة والفعل والتأثير في العالم حتى الآن ؟ كيف نفهم قوله تعالى : (لا إكراه في الديـن) ، وهـل ثمـة علاقة بين (لا إكراه في الدين) و (لا إله إلا الله) ؟

هذه الإشكالات ، وإشكالات أخرى ، هـي الهم الفكري الـذي يناقشـه المفكـر الإسـلامي جـودت سـعيد في هـذا الكتاب..

الناشر